

وَكَاْنَتِ الْقُبُوْرُ اَرْشِيْفًا لِلْحَضَارَةِ

الجزء الثاني

كواليس وخفايا وأسرار



إعداد وصياغة:
أماني سليمان

وكانت القبور أرشيفاً للحضارة

الجزء الثاني

كواليس وخفايا وأسرار

كواليس المؤامرات وخفايا الجينات وأسرار المخطوطات

إعداد وصياغة

أمني سليمان

كانت عين الفراعنة تسبق خطواتهم

فقد أدركوا مبكراً أن المعركة تُربح أولاً

في عقول الجواسيس والعيون المنتشرة في أراضي الخصوم
قبل أن تُحسم في ساحات الوغى

بين المباغثة والتمويه

سارت تكتيكاتهم على جمر السرية العسكرية

فكانت حملاتهم تتحرك كأسراب صامئة

تنقل الجيش والعتاد بالبحر والنهر

لتفاجئ الأعداء حيث لا يتوقعون

تلك الخيوط الدقيقة الملتفة في كل خلية

ليست سوى حبر الخالق الذي خط قصة البشرية عبر
العصور لتشهد على أن الماضي حي فينا لا يموت

في كواليس الإمبراطورية الفرعونية
كانت المعلومة العسكرية تُوزن بميزان الذهب
فالسرقعة لم تكن للمقابر فحسب
بل كانت حرباً لاستباق مؤامرات الأعداء
وخرق حصونهم الفكرية

لم يتركوا للنصر صدفة
بل جعلوا من الاستخبارات علماً يُدرس
ومن التمويه العسكري
تكتيكاً يُدير دفة الدولتين الوسطى والحديثة
لتبقى تيجانهم رصينة لا تهزها الرياح

أحمس الأول (مصر التي خرجت من الحرب إمبراطورية)

حين اعتلى أحمس الأول العرش، كانت مصر قد خرجت لتوها من واحد من أكثر عصورها اضطراباً. كان أحمس من البيت الطيبي الذي بدأ مقاومة الهكسوس، وأكمل ما بدأه أسلافه حتى تمكن من استعادة أواريس وإنهاء حكم الأسرة الخامسة عشرة، ثم واصل حملاته لتثبيت وحدة البلاد والسيطرة على النوبة. ولهذا يُعد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وبداية الدولة الحديثة، التي ستصبح واحدة من أقوى مراحل الحضارة المصرية.

العسكرية والاستخبارات (حقائق جغرافية واستراتيجية خشنة)

سلاح الدروع الحربية وتكنولوجيا المعادن المقلوبة

حين واجه الفراعنة الهكسوس، صُدموا بتفوق عجلاتهم الحربية السريعة. المفارقة هنا أن المصريين لم يقلدوا السلاح فحسب، بل قلبوا التكنولوجيا؛ فالعجلات الهكسوسية كانت ثقيلة وتحتاج لخيول قوية وتتعطل في رمال الدلتا الطينية. المهندسون العسكريون الفراعنة خففوا وزن العجلات تماماً مستخدمين خشب الأرز المرن، وجعلوا محور العجلة في الخلف ليعطيها سرعة دوران مرعبة وثباتاً فوق الرمال الحارقة والمستنقعات، مما حول السلاح الدفاعي إلى قوة هجومية كاسحة حررت البلاد

شرطة المدجاي (القوات الخاصة التي تحولت إلى شفرة رعب)

في جزء الحروب واستقرار الدولة الحديثة، سيتساءل القارئ عن كيفية حفظ الأمن الداخلي وحماية حدود الإمبراطورية من الهكسوس والبدو. السر يكمن في فرقة عسكرية مرعبة عُرفت باسم المدجاي (Medjay).

المدجاي كانوا في البداية قبائل بدوية شرسة تعيش في صحراء النوبة وجنوب مصر، وكانوا محترفين في تتبع الأثر والقتال بالرمح في الصحراء القاحلة.

(التحول العسكري) بدلاً من محاربتهم، قام الفراعنة بذكاء شديد بتجنيدهم وتحويلهم إلى النخبة من القوات الخاصة والشرطة العسكرية للإمبراطورية. كانوا يرتدون جلود الفهود ويحملون هراوات مرصعة بالمعادن، وأوكلت إليهم أصعب المهام حراسة العاصمة طيبة، تصفية الجواسيس الأجانب على الحدود، وحماية وادي الملوك من لصوص المقابر. تحولت كلمة مدجاي في الشارع الفرعوني إلى شفرة تعني الرعب والقانون الذي لا يرحم.

قانون السخرة المقنع وضريبة الدم لعامة الشعب

في جزء الحروب، سيتساءل القارئ كيف كان الفرعون يجمع آلاف الجنود والعمال فجأة ليقودهم إلى بلاد الشام أو لحفر المقابر؟ الجواب يكمن في نظام اقتصادي واجتماعي خشن يُدعى قانون السخرة (Corvée).

لم يكن هناك شيء اسمه بطالة في مصر القديمة. بموجب هذا القانون، كان كل فلاح أو مواطن عادي من عامة الشعب ملزماً بتقديم أسابيع أو أشهر من العمل الشاق المجاني لصالح الفرعون والدولة (خارج مواسم الحصاد والزراعة).

(ضريبة الطاعة) إذا أعلن القصر عن بناء معبد جديد، أو حفر قناة مائية عسكرية، أو تجهيز حملة حربية؛ كان رجال الشرطة (المدجاي) يطوفون القرى ويقتادون الرجال الأصحاء قسراً إلى معسكرات العمل أو التدريب العسكري. ومن كان يرفض أو يهرب من ضريبة الدم هذه، كانت العقوبة تقع

على عائلته فوراً؛ حيث يتم الاستيلاء على مواشيهم، أو يُساق الأب والأخ إلى الأشغال الشاقة المؤبدة في مناجم الذهب القاحلة بالصحراء الشرقية.

أرفع وسام شرف عسكري في التاريخ (شفرة ذبابة الذهب)

كان الفراعنة يمنحون الضباط والجنود البواسل الذين أظهروا شجاعة استثنائية في كسر خطوط الأعداء وساماً عسكرياً مربعاً ومذهلاً يُدعى وسام ذبابة الذهب (The Golden Fly)!

لماذا الذبابة بالذات؟ قد يبدو اختيار الذبابة غريباً ومضحكاً بمعاييرنا الحديثة، ولكن في الفكر العسكري الفرعوني، كانت الذبابة هي الرمز الأسمى لـ الإصرار الشديد، والجسارة، وملاحقة العدو دون كلل أو ملل؛ فالذبابة لا تترك هدفها أبداً مهما حاولت طردها. كان الوسام يُصنع من الذهب الخالص على شكل قلادة بها ذبابات ذهبية ضخمة تتدلى على صدر القائد، وكان من يرتديها يحظى بهيبة مجتمعية وسياسية مطلقة، حيث يعرف الجميع في الشارع أنه مقاتل شرس لا يتراجع. ومن أشهر من نالت هذا الوسام العسكري الملكة إياح حتب لدورها الجبار في تحفيز الجيش لرفع لواء التحرير وطرد الهكسوس.

كانت تجربة الهكسوس قد علّمت مصر درساً قاسياً أن الحدود المفتوحة يمكن أن تتحول إلى طريق يدخل منه الخطر إلى قلب البلاد. ولذلك تغيرت السياسة المصرية بعد إعادة التوحيد. لم تعد الدولة تريد فقط أن تحمي الدلتا وسيناء والنوبة؛ بدأت تسعى إلى إنشاء مناطق نفوذ خارج حدود وادي النيل نفسه. ومن هنا نفهم الطابع العسكري للدولة الحديثة. أصبح الجيش مؤسسة أكثر تنظيمًا وأهمية، واستخدمت مصر في هذا العصر العربات الحربية التي تجرها الخيول، إلى جانب المشاة والأسلحة التقليدية. ولم يكن الجيش منفصلاً تماماً

عن بقية الدولة؛ فالفتوحات الخارجية كانت تعني موارد جديدة، وأسرى، وذهباً، ومواد خام، ومكانة سياسية للملك. وبعد أن ثبت أحسن حكمه في مصر، اتجه جنوباً.

كانت النوبة قد استفادت من ضعف مصر خلال الفترة الانتقالية الثانية، وكانت مملكة كرمة قوة كبيرة في المنطقة. لذلك كان استعادة السيطرة على الجنوب جزءاً أساسياً من مشروع الدولة الجديدة. وتشير الأدلة إلى أن أحسن شن حملات في النوبة، وأن خلفاءه واصلوا توسيع السيطرة المصرية حتى أصبحت مصر في الدولة الحديثة تسيطر على مناطق وصلت جنوباً إلى ما بعد الشلال الرابع. ولم تكن أهمية النوبة عسكرية فقط هناك الذهب. كانت النوبة غنية بالذهب والعاج والأبنوس والأحجار والماشية وغيرها من الموارد، وكانت هذه الثروات جزءاً من الاقتصاد المصري ومن قدرة الدولة على تمويل الجيوش والمشاريع والمعابد. لذلك ارتبط التوسع جنوباً بالاقتصاد بقدر ارتباطه بالأمن. ومن هنا بدأت مصر الحديثة تتحول من دولة نهريّة تتركز داخل وادي النيل إلى دولة ذات مجال نفوذ واسع. وكان لهذا التحول أثر مباشر في الدين.

لقد خرج أحسن من طيبة، والبيت الذي أعاد مصر إلى الوحدة كان مرتبطاً بإله المدينة آمون. ومع انتصار الأسرة الثامنة عشرة، ارتفعت مكانة آمون بصورة هائلة، ثم اندمج تدريجياً مع رع في صورة آمون-رع، فأصبح أحد أهم الآلهة في الدولة الحديثة. ولم يكن هذا الصعود مجرد مسألة إيمان شخصي. المعبد الذي يخدم الإله كان مؤسسة تمتلك الأراضي والعمال والمخازن والماشية والموارد، ومع اتساع ثروة الدولة اتسعت أيضاً الهبات المقدمة إلى المعابد. وكان الكرنك في طيبة مركزاً رئيسياً لعبادة آمون، ثم أخذ الملوك المتعاقبون يضيفون إليه الصالات والمسلات والتماثيل والبوابات،

حتى تحول عبر القرون إلى مجمع ديني هائل. وهنا نحتاج أن نتذكر ما وصلنا إليه في نهاية الدولة القديمة.

هناك، كان ضعف المركز قد ترافق مع ازدياد أهمية المؤسسات المحلية والدينية. أما في الدولة الحديثة، فنرى الاتجاه المعاكس في البداية الملك يعيد تركيز السلطة، لكنه في الوقت نفسه يمنح المعابد الكبرى ثروة ونفوذًا متزايدين. وهذه المفارقة ستصبح مهمة جدًا لاحقًا.

فالدولة التي تعززت بالحرب أعطت جزءًا من ثروتها للآلهة، والمعابد التي تلقت هذه الثروة أصبحت مؤسسات اقتصادية ضخمة. وكان آمون تحديدًا مرتبطًا بالملك والانتصار والثروة الإمبراطورية. ومع مرور الوقت سيصبح نفوذ كهنته قضية سياسية بحد ذاتها. لكننا لم نصل إلى ذلك بعد. في عهد أحمس وخلفائه الأوائل، كان هناك شعور واضح بأن مصر استعادت قوتها.

وتظهر هذه الروح في العمارة والفن. لم تعد المقابر الملكية تُبنى على شكل أهرامات ضخمة كما في الدولة القديمة، بل بدأ الملوك يختارون مقابر منحوتة في الصخور في منطقة طيبة الغربية، في وادٍ صحراوي بعيد عن المناطق الزراعية. وهكذا بدأ الطريق الذي سيقودنا لاحقًا إلى وادي الملوك.

كان هذا التغيير عمليًا ورمزيًا في الوقت نفسه. فبدل أن يعلن الملك عن قبره بكتلة حجرية هائلة ترتفع فوق السهل، أصبح القبر مخفيًا داخل الجبل، بينما يُبنى معبد جنائزي مستقل في مكان آخر لإقامة الطقوس والقرايين.

وكانت فكرة حماية المقبرة من اللصوص مهمة، لكن لا ينبغي أن نقول إن اختيار الوادي كان سببه الوحيد الخوف من السرقة؛ فقد تدخلت فيه أيضًا طبيعة طيبة الجبلية، والتقاليد الدينية، وفكرة الارتباط بالغرب وبالعالم الموتي.

أما أحمس نفسه، فقد ارتبط اسمه أيضاً بأحد التحولات المهمة في تاريخ المؤسسة الملكية الدينية أحمس نفرتاري.

كانت أحمس نفرتاري، زوجة أحمس الأول، شخصية ملكية ذات مكانة استثنائية. أصبحت مرتبطة بمؤسسة زوجة الإله آمون، وهو منصب سيزداد أهمية في الدولة الحديثة. كما حظيت بتكريم ديني بعد موتها، وأصبحت شخصيتها مرتبطة بعبادة جنائزية في طيبة. وهذا يوضح أن النساء في الأسرة الملكية لم يكن حضورهن مجرد زينة حول الملك؛ بعضهن امتلكن أدواراً دينية وسياسية ومؤسسية حقيقية. وبعد أحمس جاء أمنحتب الأول، واستمرت عملية تثبيت الدولة وإعادة تنظيمها.

وفي عهده وخلال ما تلاه، أخذت طيبة تتحول إلى مدينة ملكية ودينية ضخمة، وأصبح غرب النهر أرضاً للمقابر والمعابد الجنائزية، بينما كان الشرق مركزاً للمدينة والمعابد الكبرى. وكان هذا التقسيم بين شرق النيل وغربه يحمل معنى دينياً عميقاً. شرق النيل هو جهة الشروق والحياة والغرب هو جهة الغروب والموت.

ولهذا أصبحت الضفة الغربية لطيبة عالم المقابر والمعابد الجنائزية، بينما بقيت الضفة الشرقية مركزاً رئيسياً للمدينة والمعابد الكبرى مثل الكرنك. وهنا يظهر المصري القديم وهو يحول الجغرافيا نفسها إلى عقيدة.

لم يكن الموت مكاناً منفصلاً تماماً عن الحياة؛ كان امتداداً لها على الضفة الأخرى. وفي الدولة الحديثة ستتطور النصوص الجنائزية التي عرفنا جذورها في الدولة الوسطى. وستصبح جدران المقابر الملكية مليئة بالنصوص والمناظر التي تصف رحلة الشمس خلال العالم السفلي، والبوابات

التي تعترض طريقها، والكائنات التي تواجهها، وتجدها كل ليلة حتى تولد من جديد مع الفجر.

وهنا سنلتقي لاحقاً بكتب العالم الآخر مثل كتاب البوابات وكتاب ما هو موجود في العالم الآخر، وهي ليست كتاباً واحداً بالمعنى الحديث، بل تقاليد ونصوص دينية متعددة تطورت في الدولة الحديثة. لكن الدولة الحديثة لم تكن مقابر وآلهة فقط. كانت أيضاً مصر الإمبراطورية.

ومع الجيل التالي من الملوك ستتجه الجيوش شمالاً إلى بلاد الشام. وستظهر مدن مثل مجدو وقادش في تاريخ مصر، وستدخل مصر في شبكة سياسية تضم ممالك ومدناً في بلاد الشام، إضافة إلى قوى كبرى في الشرق الأدنى.

وسيصبح الملك المصري في النقوش هو المحارب الذي يقود عربته، ويضرب أعداءه، ويعيد الأسرى، ويحمل الغنائم إلى الآلهة.

لكن وراء هذه الصورة العسكرية كان هناك شيء أكبر مصر أصبحت جزءاً من عالم دولي واسع. والدليل ليس في النقوش المصرية وحدها. فقد أصبحت العلاقات الدبلوماسية والمراسلات والهدايا والزواج السياسي والتجارة جزءاً من الحياة الدولية في ذلك العصر.

ومع تحتمس الأول ثم تحتمس الثالث ستتسع هذه القوة أكثر، حتى تصبح مصر صاحبة نفوذ واسع في بلاد الشام والنوبة. وسيأتي بعدهما عهد امرأة ستصبح من أشهر حكام مصر حتشبسوت.

لكن حتشبسوت ليست مجرد ملكة حكمت مصر قصتها ستفتح لنا سؤالا مهماً جداً كيف يمكن لامرأة أن تصبح ملكاً في نظام كانت صورة الملك فيه مرتبطة منذ آلاف السنين بجسد الرجل؟

حتشبسوت حين أصبحت المرأة ملكًا

بعد وفاة تحتمس الثاني، لم تكن مصر أمام انتقال بسيط للعرش. فالملك ترك وريثًا صغيرًا هو تحتمس الثالث، وكان ابنًا لإحدى زوجاته الأقل شأنًا، بينما كانت حتشبسوت، زوجة تحتمس الثاني الملكية وابنة تحتمس الأول، تمتلك مكانة قوية داخل الأسرة الحاكمة. في البداية تولت الوصاية على الصبي، ثم تحولت الوصاية تدريجيًا إلى حكم مشترك، إلى أن تبنت ألقاب الملك كاملة، وأصبح اسمها الملكي ماعت كارع. وتختلف التقديرات حول مدة الوصاية قبل أن تتخذ لقب الملك، لكن المؤكد أنها لم تبقى مجرد وصية على طفل؛ فقد أصبحت صاحبة السلطة الملكية نفسها، بينما ظل تحتمس الثالث ملكًا مشاركًا في الصيغة الرسمية. وهنا تظهر واحدة من أكثر الظواهر إثارة في التاريخ المصري كيف استطاعت امرأة أن تقدم نفسها للمصريين لا بوصفها امرأة تتولى الحكم مؤقتًا، بل بوصفها الملك؟ لم تحاول حتشبسوت إخفاء جنسها في كل صورها، فهناك تماثيل تظهر فيها بملابس النساء وملامح أنثوية، وتحمل ألقابًا ملكية بصيغ مؤنثة. وفي الوقت نفسه، تظهر في تماثيل أخرى بالزي الملكي التقليدي للملك، مع النمس واللحية المستعارة والتكوين الجسدي الذكوري الذي اعتاد الفن المصري استخدامه لتمثيل الملك. لذلك لا يصح اختزال الأمر في القول إنها تنكرت كرجل. كانت تستخدم لغة الملك المصري كما كانت معروفة في الفن والعقيدة، لأن الملك في الصورة الرسمية كان يحمل دورًا دينيًا وسياسيًا محددًا، بغض النظر عن جسده البيولوجي.

بسبب انتشار القمل، كان الرجال والنساء (حتى الملوك والملكات) يحلقون رؤوسهم وحواجبهم بالكامل. وللحفاظ على المظهر الفخم، كانوا يرتدون

الباروكات (الشعر المستعار) المصنوعة من شعر بشري أو صوف الأغنام المدهون بالزيوت العطرية وشمع النحل.

وكانت الشرعية الدينية جزءاً أساسياً من هذا البناء. فقد ارتبطت حتشبسوت بآمون، الإله الذي كان نفوذه يتعاضد في طيبة، وقدمت نفسها في نقوشها باعتبارها مختارة من الإله ووارثة شرعية العرش. وهنا ينبغي أن نفرق بين النص الديني الذي أرادت الدولة أن تقدمه بوصفه تفسيراً لشرعيتها، وبين إثبات وقوع الأحداث حرفياً كما ترويها النقوش. فالنقوش الملكية المصرية لم تكن سجلات محايدة بالمعنى الحديث، بل كانت جزءاً من صناعة الشرعية نفسها.

وكان اسمها الملكي ماعت كارع يحمل رسالة سياسية ودينية جميلة ماعت مرتبطة بالنظام والحق والتوازن، ورع بالقوة الشمسية والملكية. وكان اسمها نفسه يقول إن حكمها جزء من النظام الكوني الذي يجب على الملك أن يحفظه. وهذا يربط حتشبسوت مباشرة بذلك الخيط الذي رافقنا منذ الدولة القديمة الملك لا يحكم الأرض فقط، بل يفترض أن يحفظ ماعت.

لكن قوة حتشبسوت لم تظهر في الألقاب وحدها. ففي غرب طيبة أقامت واحداً من أجمل المجمعات الملكية في مصر، معبدها الجنائزي في الدير البحري، مدرجاً في سفح الجبل، ومتصلاً بالمشهد الطبيعي بطريقة جعلت العمارة تبدو وكأنها تصعد من الأرض نحو الجبل. لم يكن المعبد مجرد مكان تُقام فيه طقوس موتها؛ كان إعلاناً عن حضورها الملكي والديني، ومكاناً مرتبطاً بعبادة آمون والطقوس الملكية. وقد وُضعت فيه عشرات التماثيل الضخمة لها، ومنها تماثيل تظهرها في هيئة الملك الذكر، تحمل أواني القرابين لآمون. وكان من أهم الشخصيات التي ارتبطت بحتشبسوت سنن موت، أحد كبار

رجال البلاط. شغل مناصب متعددة، وأشرف على أعمال ملكية مهمة، وارتبط اسمه بإدارة ممتلكات حتشبسوت وبمشروعاتها المعمارية. لكن شهرته اللاحقة دفعت بعض الروايات الحديثة إلى تحويل علاقته بها إلى قصة عاطفية، بينما لا يوجد ما يكفي من الدليل التاريخي لإثبات هذه الصورة الرومانسية. ما نعرفه بثقة أكبر هو أنه كان شخصية شديدة النفوذ في إدارتها، وأن تماثيله ونقوشه تكشف عن مكانته الكبيرة في عهدها.

ومن أشهر أحداث عهد حتشبسوت البعثة إلى بلاد بونت. كانت بونت تقع في منطقة جنوبية بعيدة عن مصر، ويرجح ارتباطها بمناطق من القرن الأفريقي وسواحل البحر الأحمر، لكن موقعها الدقيق ما زال موضع بحث. لم تكن الرحلة مجرد حملة عسكرية؛ كانت بعثة تجارية ودينية جلبت إلى مصر سلعاً ومنتجات نادرة، وارتبطت خصوصاً بالبخور والأشجار العطرية وغيرها من الموارد التي تحتاجها الطقوس والمعابد.

وقد خُذت البعثة على جدران معبد الدير البحري في مشاهد تفصيلية، تظهر السفن والرحلة وسكان بونت والنباتات والحيوانات والسلع التي عادت بها البعثة. وهذه المشاهد من أهم مصادرها لفهم العلاقات بين مصر ومناطق البحر الأحمر، لكنها تظل تمثيلاً مصرياً للرحلة، لا صورة فوتوغرافية للحياة في بونت؛ ولذلك ينبغي قراءة تفاصيلها مع الأدلة الأخرى. وكان تجديد الوصول إلى الموارد الخارجية جزءاً من ازدهار عهد حتشبسوت، إلى جانب التجارة مع مناطق أخرى في غرب آسيا وبحر إيجة. ولم يكن عهدها خالياً من النشاط العسكري كما تصوره أحياناً الصورة الحديثة لحتشبسوت بوصفها ملكة السلام والتجارة فقط. توجد أدلة على حملات في النوبة وعلى مشاركة قوات مصرية في تحركات عسكرية شمالاً وجنوباً. أحد كبار رجالها العسكريين، إينبني، يذكر في تمثاله أنه تبع سيده في حملات إلى أراضٍ

أجنبية جنوب مصر وشمالها. وهذا مهم جدًا؛ لأن مصر في الدولة الحديثة لم تكن إمبراطورية عسكرية طوال الوقت بالمعنى نفسه، لكنها كانت قد دخلت مرحلة أصبح فيها الذهب والطرق التجارية والحدود والنفوذ الخارجي جزءًا من قوة الدولة. حتشبسوت لم توقف هذا المسار، بل حكمت في مرحلة استطاعت فيها مصر أن تجمع بين الإدارة الداخلية، والبناء، والتجارة، والطقوس، والحضور العسكري.

ومن اللافت أيضًا أن آثار حتشبسوت لم تكن كلها تحمل صورتها كامرأة أو كرجل؛ فقد كانت هناك صيغة ثالثة أعمق الملك بوصفه فكرة دينية وسياسية. فالمصري الذي ينظر إلى تمثالها لم يكن ينظر فقط إلى جنس الشخص المصوّر، بل إلى صاحب العرش الذي يقدم القرابين للآلهة ويحفظ الأرضين ويحمل ألقاب الملك. لذلك تبدو صورها المتنوعة أقل تناقضًا مما قد تبدو لنا اليوم.

ولم تكن حتشبسوت أول امرأة ترتبط بالسلطة الملكية في مصر. فقد عرفت مصر نساء ذوات مكانة ملكية قوية قبلها، وهناك أسماء نسائية ارتبطت بالعرش أو بالحكم في فترات أقدم، مثل نيت إقرتي التي ترد في التقاليد التاريخية المتأخرة، وإن كانت الأدلة المعاصرة لعصرها أقل وضوحًا بكثير. لذلك الأدق ألا نقول إن حتشبسوت كانت أول امرأة تحكم مصر، وإنما كانت من أوضح وأقوى النساء اللواتي وصلن إلى موقع الملك في مصر القديمة، وأكثرهن توثيقًا أثرياً. ثم انتهى عهدها، وبقي تحتّمس الثالث. وهنا تبدأ واحدة من أكثر الفصول تعقيدًا في تاريخ الدولة الحديثة؛ لأن الرجل الذي كان ملكًا معها لسنوات طويلة أصبح بعد وفاتها الحاكم المنفرد، ثم ارتبط اسمه لاحقًا بالتوسع العسكري المصري الكبير.

تحتمس الثالث (حين خرج الجيش المصري إلى الشمال)

بعد وفاة حتشبسوت، أصبح تحتمس الثالث الملك الفعلي لمصر، وحكم سنوات طويلة. وقد بدأ عهده المستقل في مرحلة كانت فيها مناطق بلاد الشام مرتبطة بالنفوذ المصري بدرجات مختلفة، بينما كانت القوى المحلية في تلك المنطقة تتحرك باستمرار للحفاظ على استقلالها ومصالحها.

ومن أشهر أحداث حكمه معركة مجدو، التي أصبحت لاحقاً من أبرز الحملات العسكرية في التاريخ المصري. لم تكن المعركة مجرد مواجهة بين جيشين في ساحة مفتوحة؛ فقد تحرك الجيش المصري باتجاه مدينة مجدو، وكان عليه أن يختار طريق الوصول إليها عبر منطقة جبلية ذات ممرات صعبة. وبعد المواجهة تمكن المصريون من تحقيق انتصار، وأصبحت مجدو رمزاً للقوة العسكرية المصرية في بلاد الشام.

لكن أهمية تحتمس الثالث لا تكمن في معركة واحدة. فقد شن خلال حكمه سلسلة من الحملات إلى بلاد الشام والنوبة، وسعى إلى تثبيت النفوذ المصري في المناطق التي أصبحت جزءاً من المجال السياسي والاقتصادي للدولة الحديثة. وهنا نصل إلى مرحلة مختلفة تماماً عن مصر القديمة فمصر لم تعد فقط دولة نيلية تحمي حدودها؛ لقد أصبحت قوة تتعامل مع ممالك ومدن وشبكات تجارية خارج وادي النيل.

ومن هنا ستبدأ مصر تعرف نفسها أيضاً من خلال العالم المحيط بها؛ لا من خلال النيل وحده. لكننا سنترك تحتمس الثالث عند بداية توسع مصر الإمبراطوري، لننتقل إلى السؤال الأهم كيف كانت مصر تدير هذا العالم الواسع الذي أصبحت تسيطر عليه؟

شبكة الطرق واللوجستيات العسكرية (كيف مشى الجيش؟)

أغلب الكتب تقول قاد تحتمس جيشه إلى بلاد الشام، ولكن النقص هو كيف قطع آلاف الجنود والخيول مئات الكيلومترات في صحراء سيناء القاحلة دون أن يموتوا من العطش والجوع؟

الحقيقة المفقودة (طريق حورس الحربي) الفراعنة لم يمشوا عشوائياً، بل بنوا أعظم نظام لوجستي عسكري في العالم القديم يُدعى طريق حورس الحربي الممتد من القنطرة شرق حتى غزة.

كان هذا الطريق يحتوي على شبكة من ١١ قلعة عسكرية مجهزة وبها آبار مياه محفورة في الصخر وصوامع غلال ضخمة تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة مسيرة يوم واحد. الجيش كان يتحرك وهو يعلم أنه في نهاية كل يوم سيصل إلى قلعة توفر له الماء العذب، والعلف للخيول، والقمح المخزن، والتحصين ضد البدو. بدون هذا الإعجاز اللوجستي الجغرافي، كانت كل حملات الفراعنة العسكرية ستنتهي بمقبرة جماعية في رمال سيناء.

السلح الاستراتيجي الصامت (قوارب النقل السريع)

الكل يركز على العجلات الحربية، ولكن النقص الفادح هو إغفال الأسطول النهري والبحري اللوجستي الذي لولاه لما قامت إمبراطورية الفراعنة.

بلاد الشام جبلية ووعرة، ونقل الدروع والسهام والأغذية على حمار أو عربة حربية عبر الجبال كان انتحاراً بطيئاً ويستغرق شهوراً. العبقرية العسكرية المصرية اعتمدت على نقل الجيش والمعدات بالبحر والنهر.

كان الفراعنة يصنعون سفناً عملاقة من خشب الأرز المستورد، تبحر من النيل إلى البحر المتوسط، وتنزل الجنود والعتاد مباشرة عند الموانئ

الساحلية لبلاد الشام (مثل جبيل وأوغاريت). من هناك، كان الجيش يبدأ معاركه وهو بكامل طاقته ونشاطه ومؤنثه قريبة منه على الشاطئ؛ فالأسطول البحري كان هو الناقل الاستراتيجي الذي ثبت حكم الفراعنة في آسيا.

عيون الملك المستترة (أسرار شبكة الاستخبارات الفرعونية)

خلف قعقة السيوف وصهيل الخيول في معارك الدولة الحديثة، كانت هناك حرب صامتة تُدار في الخفاء؛ حرب لا تعتمد على قوة السلاح، بل على تدفق المعلومة. لم يكن الفرعون يخطو خطوة واحدة بجيشه خارج حدود وادي النيل دون أن تسبقه عيونه المستترة؛ أول شبكة استخبارات عسكرية منظمة في التاريخ القديم.

في معهد الملك العبقري تحتمس الثالث الحربي، تحسست مصر أهمية الجاسوسية لضمان بقاء الإمبراطورية. تكشف البرديات العسكرية أن تحتمس ابتكر فرقة سرية من الجواسيس أطلق عليها اسم آشم (وتعني الصقور الحائمة). لم يكن هؤلاء الجواسيس يرتدون دروع الجيش أو يحملون رايات الفرعون، بل كانوا يتخفون في زيّ تجار بدو متجولين، أو مبعوثين دبلوماسيين، أو حتى متسولين على أبواب قلاع كنعان في بلاد الشام.

قبل معركة مجدو الفاصلة، حقق هؤلاء الجواسيس أعظم اختراق استخباري؛ إذ تمكنوا من الاندماج داخل معسكرات أمير قادش المتمرد، ورسموا خرائط جغرافية دقيقة للممرات الجبلية الوعرة المؤدية إلى المدينة. وحين عادوا بالمعلومات الدقيقة، صدم تحتمس الثالث قادة جيشه باتخاذ قراره التاريخي الانتحاري عبور ممر عرونة الضيق جداً الذي لا يتسع إلا لرجل واحد وخيل واحد فرادى. وبفضل هذه المعلومة الاستخبارية، باغت الفرعون الأعداء

الذين كانوا ينتظرونه في الممرات الواسعة، ووجدوا أنفسهم محاصرين من حيث لم يحتسبوا، لتسجل العسكرية القديمة أن العين المستترة هي التي حسمت المعركة قبل أن تبدأ السهام بالتحليق.

تشرح معركة مجدو (تكتيك خط الدفاع البشري المزيف)

عندما حاصر تحتمس الثالث كنعان في مجدو، لم تكن الهزيمة العسكرية للأعداء بسبب السيوف فقط، بل بسبب تكتيك ذكي ومكيدة ذكية لجأ إليها الفرعون في حصار المدينة الذي استمر ٧ أشهر.

المفاجأة الاستخباراتية عندما تراجع الأعداء وتحصنوا داخل أسوار مدينة مجدو المنيعة وأغلقوا البوابات، قام المهندسون العسكريون لتحتمس الثالث بحفر خندق عملاق حول المدينة بالكامل، وبنوا فوقه سياجاً ضخماً من خشب أشجار الزيتون التي قطعوها من بساتين الشام المحيطة.

(الخداع البصري) أطلق تحتمس على هذا الحصار اسماً سحرياً وعسكرياً هو تحتمس هو حاصر الآسيويين؛ حيث كان يأمر الجنود بوضع تماثيل خشبية وملابس عسكرية فوق السياج نهائياً ليظن المحاصرون بالداخل أن الجيش المصري يملك أعداداً لا حصر لها تحيط بالأسوار من كل جانب، مما دمر الروح المعنوية للأعداء بالداخل وجعلهم يستسلمون في النهاية بسبب الرعب النفسي والجوع قبل صراع السيوف.

تحتمس الثالث (حين أصبحت مصر إمبراطورية)

لم تكن حملات تحتمس الثالث مجرد سلسلة من المعارك التي يخوضها ملك بعيداً عن بلاده ثم يعود إلى طيبة. فقد كان عليه أن يحافظ على شبكة واسعة من المدن والممالك التي دخلت في دائرة النفوذ المصري، وأن يضمن وصول

الموارد والجزية، وأن يمنع القوى المنافسة من استعادة مواقعها. وتظهر النقوش المصرية تحتمس الثالث بوصفه ملكاً منتصراً، لكن خلف هذه الصورة الاحتفالية كانت هناك إدارة معقدة للعالم الذي اتسعت فيه حدود النفوذ المصري. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن نفوذ مصر في الجنوب وصل بعيداً داخل النوبة، حتى إن نصباً حدودياً لتحتمس الثالث عُثر عليه في منطقة كرغس في السودان الحديث.

وكانت النوبة بالنسبة إلى مصر أكثر من حدود جنوبية. فمنها جاء الذهب الذي كان من أهم مصادر ثروة الدولة، إلى جانب العاج والأبنوس والأحجار والماشية وغيرها من الموارد. ولهذا استمر الوجود العسكري والإداري المصري في الجنوب، مع إنشاء الحصون والمراكز التي تراقب النهر والطرق وتؤمن حركة الموارد. لم تكن العلاقة بين مصر والنوبة حرباً مستمرة؛ فقد كانت هناك تجارة واتصال سكاني وثقافي طويل، لكن الدولة المصرية، حين بلغت قوتها في الدولة الحديثة، أصبحت تفرض سيطرة سياسية وعسكرية واسعة على أجزاء كبيرة من المنطقة.

وفي الشمال كانت الصورة أكثر تعقيداً. لم تكن بلاد الشام دولة واحدة تستطيع مصر احتلالها والسيطرة عليها كإقليم موحد، بل كانت شبكة من المدن والممالك المحلية. بعضها يعترف بالنفوذ المصري، وبعضها يتمرد، وبعضها يغير تحالفاته تبعاً للظروف. وكانت القوى الكبرى في المنطقة، مثل ميتاني، قادرة على التأثير في ميزان القوى، لذلك لم يكن وجود الجيش المصري في الشام كافياً وحده؛ كان على مصر أن تحافظ على علاقات سياسية وتحالفات وتبادل للرسل والهدايا والرهائن والموظفين. وهنا تظهر إحدى السمات المهمة للدولة الحديثة الإمبراطورية المصرية لم تكن حدوداً مرسومة على خريطة بالمعنى الحديث. كانت مناطق النفوذ تختلف في درجة خضوعها

لمصر، من أراضٍ تدار مباشرة، إلى مدن محلية يحكمها أمراء تابعون، إلى مناطق ترتبط بمصر بالجزية والتحالفات والاعتراف بالملك. وكانت الجزية نفسها جزءاً من الاقتصاد والسياسة معاً. فالذهب والماشية والخشب والمعادن والأحجار والمنتجات الغريبة التي تصل إلى مصر لم تكن مجرد ثروة مادية؛ كان عرضها أمام الملك في النقوش يثبت أن العالم الخارجي يعترف بقوة مصر وملكها. لذلك نجد في المقابر والمعابد مشاهد لشعوب أجنبية تحمل الهدايا والذهب والحيوانات والمنتجات المختلفة. هذه المشاهد ليست سجلات اقتصادية محايدة، بل لغة سياسية ودينية تصور الملك مركزاً للنظام الذي تمتد إليه البلاد الأجنبية.

وفي الوقت نفسه كان الجيش نفسه يتغير. فقد أصبح استخدام الخيول والعربات الحربية عنصراً أساسياً في القوة العسكرية المصرية منذ الدولة الحديثة، بعد أن دخل الحصان إلى مصر في الفترة الانتقالية الثانية. وأصبحت العربدة مرتبطة بالملك والنخبة العسكرية، وظهرت في الفن المصري إلى جانب صور الانتصار على الأعداء.

سلاح الفيلة الحربي المحرم (الصدمة النفسية للجيش المصري)

في الدولة الحديثة وعصر المعارك في بلاد الشام، اعتاد الجيش المصري على مواجهة الأعداء الذين يركبون الخيول والعجلات الحربية. لكن البرديات العسكرية سجلت صدمة تكتيكية مرعبة واجهها الجنود الفراعنة لأول مرة عند ضفاف نهر الفرات.

(المفاجأة العسكرية) واجه الجيش المصري جيوش ممالك ميتاني وآشور وهم يقودون الفيلة الآسيوية الضخمة المدربة على القتال. كانت هذه الفيلة

بمثابة دبابات العالم القديم؛ تدهس المشاة، وتصدر أصواتاً مرعبة تجعل خيول العجلات الحربية المصرية تصاب بالذعر وتفر من أرض المعركة.

كيف تصرف الفراعنة؟ تذكر السجلات أن القائد العسكري الشجاع أمنمحات (تلميذ تحتمس الثالث) ابتكر خطة انتحارية أمر الجنود بعدم مواجهة الفيل من الأمام، بل الالتفاف حوله من الخلف واستخدام سيوف الخوبش المقوسة الحادة لقطع عرقوب الفيل (الوتر الخلفى للساق) لشل حركته تماماً وإسقاطه أرضاً. هذه الصدمة جعلت الفراعنة يدرجون الفيلة كسلاح محرم ومرعب في خططهم الاستخباراتية قبل الخروج لأي معركة في آسيا.

لكن تحتمس الثالث لم يكن قائداً عسكرياً فقط. فقد بنى وأضاف إلى المعابد، وخاصة في الكرنك، وترك آثاراً كثيرة مرتبطة بآمون. وتكشف تماثيله عن الصورة التي أراد أن يثبتها عن نفسه الملك القوي، المنتصر، لكنه في الوقت نفسه العابد الذي يستمد سلطته من الإله. ومن أشهر صوره تمثال أبو الهول الذي يظهر فيه برأس الملك وجسد الأسد، وتحمل نقوشه اسمه الملكي وعلاقته بآمون. وهكذا أصبح آمون أكثر من إله محلي لطيبة. فقد ارتفعت مكانته مع صعود الأسرة الثامنة عشرة، ثم أصبح آمون-رع أحد أهم مراكز الشرعية الدينية والسياسية في مصر. وكان هذا التطور سيترك أثراً هائلاً في تاريخ الدولة الحديثة؛ لأن القوة التي تمنحها الدولة للمعابد قد تعود عليها بالقوة نفسها، ولكنها قد تجعل المؤسسة الدينية صاحبة ثروة ونفوذ قادرين على التأثير في السياسة. وهنا تبدأ مفارقة سترافقنا لاحقاً كلما ازدادت مصر قوة، ازدادت ثروة معابدها أيضاً. ولم يكن تحتمس الثالث آخر من استفاد من هذا النظام. بعده جاء أمنحتب الثاني، ثم تحتمس الرابع، إلى أن وصلت الأسرة الثامنة عشرة إلى واحدة من أكثر مراحلها ازدهاراً في عهد ملك مختلف تماماً في أسلوبه عن تحتمس الثالث أمنحتب الثالث.

أمنحتب الثالث (حين بلغت مصر ذروة الثراء)

لم يكن عهد أمنحتب الثالث معروفاً بالتوسع العسكري الكبير بقدر ما عُرف بالثروة والبناء والدبلوماسية. فقد ورث إمبراطورية واسعة امتدت من مناطق في بلاد الشام شمالاً إلى مناطق بعيدة في النوبة جنوباً، وحكم نحو ثمانية وثلاثين عاماً. وتصفه الأدلة المتحفية بأنه حكم مصر في فترة بلغت فيها البلاد مستوى استثنائياً من الثراء، وازدهرت فيها الفنون والعمارة.

وهنا يمكن أن نرى كيف بدأت الإمبراطورية تتحول من مشروع عسكري إلى نظام دولي. لم تعد مصر تتعامل مع جيرانها بالسيف وحده. أصبحت هناك مراسلات وهدايا وزيجات ملكية وتحالفات ومفاوضات. وفي القصور المصرية وصلت منتجات من مناطق بعيدة، وتحولت البلاطات الملكية في الشرق الأدنى إلى عالم مترابط تتبادل فيه الممالك الرسائل والهدايا والأميرات والذهب والأقمشة والأخشاب.

وفي عهد أمنحتب الثالث وصلت صورة الملك في الفن إلى درجة لافتة من المثالية. فتماثيله لا تقدم وجهاً تاريخياً واقعياً بالضرورة، بل ملكاً شاباً قوياً متجدداً. وحتى في تماثيل صُنع بعضها عندما كان الملك أكبر سناً، تظهر ملامح شابة مرتبطة بفكرة التجدد الملكي. وترتبط بعض هذه الأعمال بعيد الحب-سد، الذي كان من طقوس تجديد قوة الملك بعد سنوات طويلة من الحكم. وكان البناء في عهده هائلاً، وأصبح غرب طيبة فضاءً مليئاً بالمنشآت الملكية. ومن أشهر آثاره معبدا ممنون، وهما التمثالان الضخمان اللذان بقيا شاهدين على معبد جنازي لم يبقَ منه الكثير.

لكن وراء هذه الصورة المبهرة كان هناك تحول أعمق مصر أصبحت جزءاً من عالم دبلوماسي واسع، وكانت الثروة القادمة من النوبة والمناطق

الخاضعة للنفوذ المصري تسمح للقصر والمعابد بتنفيذ مشروعات هائلة. وفي هذه البيئة سيولد أحد أكثر التحولات الدينية جرأة في التاريخ المصري كله. سيأتي ملك يحمل اسم أمنتب الرابع، ويبدأ حكمه داخل تقاليد الدولة الحديثة، لكنه سيصطدم تدريجياً بأقوى مؤسسة دينية في البلاد آمون وبيت آمون في طيبة. وسننتقل معه إلى أخناتون؛ إلى مدينة جديدة بُنيت من أجل إله واحد، وإلى نفرтитي، وإلى آتون، وإلى اللحظة التي حاول فيها ملك مصري أن يعيد ترتيب العلاقة بين الملك والإله والمدينة والمعبد بطريقة لم تشهدها مصر من قبل.

أخناتون حين تغير وجه الإله

حين وصل أمنتب الرابع إلى العرش، لم يكن في مصر فراغ ديني ينتظر إلهًا جديدًا. كانت البلاد تمتلك منظومة دينية شديدة التعقيد، تضم آمون ورع وأوزير وإيزيس وحورس وتحوت وبتاح وغيرهم، وكانت المعابد مؤسسات ضخمة تملك الأراضي والموارد وتضم أعدادًا كبيرة من الكهنة والموظفين. لكن الملك الجديد بدأ، في السنوات الأولى من حكمه، بمنح آتون مكانة استثنائية. وآتون لم يكن اختراعًا جديدًا بالكامل؛ فالاسم كان موجودًا قبل أخناتون، وكان يشير إلى قرص الشمس أو مظهرها. الجديد هو أن أخناتون جعل آتون محور العقيدة الملكية على نحو غير مسبوق، ثم غير اسمه من أمنتب إلى أخناتون، أي النافع لآتون أو الفعال/المفيد لآتون بحسب القراءة المتبعة.

وفي السنة الخامسة تقريبًا من حكمه بدأ التحول الكبير اختار موقعًا جديدًا في مصر الوسطى، بين طيبة ومنف، وبنى فيه مدينة جديدة سماها آخت آتون، أي أفق آتون. وهي المدينة التي نعرفها اليوم باسم تل العمارنة. لم تكن مجرد

عاصمة جديدة؛ كانت محاولة لبناء مركز ملكي وديني جديد تكون فيه عبادة آتون مرتبطة مباشرة بالملك وعائلته. وتؤرخ آثار العمارنة هذه المرحلة تقريباً إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

وهنا حدث شيء لم يكن مألوفاً في مصر بدل أن يدخل الإله الجديد إلى مدينة قديمة ويتشارك المجال مع آلهتها، أنشأ الملك مدينة جديدة مرتبطة بالعقيدة الجديدة.

وكان آتون يُصوّر على هيئة قرص الشمس، تخرج منه أشعة تنتهي بأيدي صغيرة، وبعض هذه الأيدي يحمل علامة عنخ إلى أنوف الملك والملكة، في إشارة إلى منح الحياة. لم يعد الإله يظهر في صورة إنسان أو حيوان كما اعتاد الفن المصري، بل في صورة الشمس نفسها، مصدر الضوء والحياة. وتظهر المناظر الملكية أخناتون ونفرتيتي وبناتهما تحت أشعة آتون، في مشاهد عائلية أكثر حميمية من الفن الملكي التقليدي.

وهنا ينبغي أن نكون دقيقين في كلمة التوحيد. فالدين العمارني يُوصف كثيراً بأنه أول توحيد في التاريخ، لكن الباحثين يناقشون طبيعة عقيدة أخناتون بدقة أكبر. فآتون أصبح الإله الوحيد الذي احتل مركز العبادة الملكية، وأُقصيت آلهة أخرى من الحياة الدينية الرسمية بدرجات متزايدة، لكن هذا لا يعني أن المصريين جميعاً توقفوا فجأة عن الاعتقاد ببقية الآلهة. كما أن طبيعة العلاقة بين آتون والملك كانت استثنائية؛ فالملك وزوجته كانا الوسيطيين الأساسيين بين الإله والعالم. ولهذا كان التحول الديني في الوقت نفسه تحولاً سياسياً.

فإذا كانت المعابد القديمة، وعلى رأسها معبد آمون في طيبة، تمتلك ثروة وأراضي وكهنة ونفوذاً، فإن نقل مركز العبادة إلى آتون والمدينة الجديدة كان يعني إعادة ترتيب العلاقة بين الملك والمؤسسات الدينية. لم يعد آمون يحتل

الموقع المركزي نفسه في الخطاب الملكي، بينما أصبح آتون مرتبطاً مباشرة بالقصر. لكن أخناتون لم يكتفِ بتغيير أسماء الآلهة أو طقوس العبادة. لقد غير أيضاً الفن.

ظهرت أجساد الملك والملكة بأشكال غير مألوفة بطون ممثلة، صدور بارزة، وجوه طويلة، شفاه واضحة، وأجساد تبدو أحياناً خليطاً من السمات التي اعتاد الفن المصري فصلها بوضوح بين الذكر والأنثى. ولوقت طويل حاول الباحثون تفسير ذلك على أنه تصوير واقعي لمرض أو تشوه جسدي، لكن لا توجد حاجة إلى هذا التفسير، ولا يوجد دليل حاسم يسمح لنا بتشخيص الملك من تماثيله. الأرجح أن الفن العمارني كان يتبع أسلوباً ملكياً جديداً ومقصوداً، وقد تطور هذا الأسلوب نفسه خلال فترة الحكم.

وفي هذا الفن أصبحت العائلة الملكية حاضرة بصورة غير معتادة. نرى أخناتون ونفرتيتي وبناتهما معاً، يجلسون أو يقفون أمام آتون، وتصل أشعة الشمس إليهم. لم تعد الصورة الملكية تركز فقط على الملك وهو يقدم القرابين في مشهد رسمي جامد؛ أصبحنا نرى الأب والأم والبنات في مشاهد تحمل قدراً واضحاً من الألفة. وكانت نفرتيتي شخصية استثنائية داخل هذا النظام.

لم تكن مجرد زوجة تظهر بجانب زوجها. فآثار العمارنة تصورها وهي تشارك في الطقوس الدينية بصورة قوية، وفي بعض المناظر تظهر في وضع يكاد يوازي وضع الملك نفسه. وتشير الأدلة إلى أنها كانت شخصية ذات نفوذ كبير في البلاط، وأن حضورها في طقوس آتون كان غير مسبوق من حيث وضوحه ومكانته.

أما اسمها، نفرتيتي، فيترجم عادة إلى الجميلة قد أتت. وقد أصبحت صورتها، ولا سيما التمثال النصفي الشهير، واحدة من أكثر صور مصر القديمة شهرة

في العالم. لكن شهرتها الحديثة لا ينبغي أن تجعلنا نبالغ في ما نعرفه عنها. فنحن نعرف أنها الملكة الرئيسية لأخناتون، وأن لها مكانة دينية وسياسية واضحة، وأنها أنجبت له عددًا من البنات، لكن تفاصيل حياتها الأخيرة، ومصيرها، وما إذا كانت قد حكمت باسم آخر بعد أخناتون، ما زالت موضع نقاش. وهنا ندخل إلى واحدة من أكثر المناطق غموضًا في تاريخ الأسرة الثامنة عشرة.

ففي السنوات الأخيرة من عصر العمارنة تظهر أسماء ملكية مثل سمنخ كارع ونفر نفرو آتون، وما زالت العلاقة بينهما وبين نفرتيتي وأخناتون محل نقاش بين الباحثين. توجد فرضيات تربط نفر نفرو آتون بنفرتيتي، لكن الأمر ليس حقيقة محسومة يمكن أن نضعها في الكتاب بصيغة قاطعة. حتى المتحف البريطاني يعرض احتمال ارتباط نفر نفرو آتون بنفرتيتي، لا باعتباره أمرًا محسومًا. ثم مات أخناتون، وانتهت معه التجربة العمارنية سريعًا نسبيًا. وكانت المشكلة أن مصر لم تكن مدينة آتون فقط؛ كانت بلدًا كاملًا له تقاليده وذاكرته ومعابده وآلهته ومؤسساته. ومع غياب الملك الذي أقام النظام الجديد، بدأ الاتجاه نحو استعادة النظام القديم. وهنا يظهر طفل صغير سيصبح، بعد سنوات قليلة، أشهر ملوك مصر القديمة في العصر الحديث. كان اسمه في البداية توت عنخ آتون ثم غيّر اسمه. وأصبح توت عنخ آمون.

توت عنخ آمون (حين عادت الآلهة القديمة)

كان توت عنخ آمون صغير السن عندما أصبح ملكًا، ولذلك لا يمكن فهم عهده بوصفه مشروع ملك شاب صنع وحده قراراته السياسية والدينية. كانت مصر في حاجة إلى استقرار بعد الاضطراب الديني الذي أحدثه أخناتون، وكان رجال البلاط والكهنة وكبار المسؤولين جزءًا أساسيًا من إعادة بناء الدولة.

وفي عهده عادت عبادة الآلهة التقليدية إلى الواجهة، وعاد آمون إلى مكانته، وتخلت الدولة عن مركزية آتون. وتغير اسم الملك نفسه من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون، وهي علامة واضحة على التحول الديني. كما بدأت آثار أخناتون ومدينة العمارنة تُهجر تدريجياً، وأُعيد استخدام بعض مواد مبانيها في مشروعات لاحقة. لكن الأهم أن العودة لم تكن مجرد تغيير اسم.

لقد كان هناك إعادة تأسيس للذاكرة الرسمية. فالملك الذي حكم بعد أخناتون لم يكن يريد أن تبقى التجربة العمارنية مركز التاريخ المصري، ولذلك جرى حذف أسماء بعض ملوك تلك المرحلة من قوائم الملوك والنقوش الرسمية اللاحقة، وأُعيد تقديم تاريخ الأسرة الثامنة عشرة كما لو أن النظام التقليدي قد عاد إلى مكانه. وتُظهر المصادر المتحفية أن أخناتون وتوت عنخ آمون وغيرهما من ملوك هذه المرحلة عانوا لاحقاً من الإقصاء من بعض السجلات الملكية الرسمية. أما شهرة توت عنخ آمون الحديثة، فلم تأت من حجم إنجازاته السياسية؛ فقد كان حكمه قصيراً، ومات شاباً. وإنما جاءت من شيء آخر مقبرته.

ففي عام ١٩٢٢ اكتشف هوارد كارتر المقبرة التي تحمل الرقم وادي الملوك ٦٢، ووجد فيها مجموعة هائلة من الأشياء الجنائزية، بينها القناع الذهبي الشهير، والتابوت، والأثاث، والعربات، والأسلحة، والحلي، والأواني، وغيرها. وكان الاكتشاف استثنائياً لأن كثيراً من المقابر الملكية تعرضت للنهب وإعادة الاستخدام في العصور القديمة، بينما بقيت مقبرة توت عنخ آمون، رغم تعرضها لمحاولات اقتحام قديمة، محتفظة بكمية هائلة من محتوياتها. وهنا سنحتاج أن نتوقف قليلاً عند المقبرة نفسها، لا لنكرر قصة القناع الذهبي، بل لنسأل سؤالا أهم لماذا كانت مصر تدفن ملوكها في وادي

الملوك أصلاً؟ وما الذي كان المصري القديم يعتقد أنه يحدث للملك بعد أن يُغلق باب المقبرة؟

لأننا عند هذه النقطة سنعود إلى الخيط الذي بدأناه منذ نصوص الأهرام والتحنيط والقرايين في الجزء الأول رحلة الموتى إلى العالم الآخر، لكن هذه المرة في أكثر عصور مصر الدينية والسياسية ثراءً وتعقيداً.

الملك الشاب توت عنخ آمون (الموت الغامض والمحنة الشائعة)

رغم أنه ملك صغير لم يقدر معارك كبرى، إلا أن قبره هو الوحيد الذي وُجد كاملاً تقريباً. أظهرت الفحوصات الحديثة للمومياء أنه كان يعاني من قدم قعساء (عرجاء) ويتحرك بعكازات، وأنه مات بسبب مضاعفات كسر في الساق مع إصابته بالمalaria، وليس مقتولاً كما كان يُشاع.

وادي الملوك (حين أصبح الموت رحلة إلى العالم الآخر)

لم تعد المقبرة الملكية في الدولة الحديثة تشبه أهرام الدولة القديمة. فقد انتقل الملك من بناء هرم هائل يرتفع فوق السهل إلى دفن جسده في أعماق الجبل، بينما أُقيم المعبد الجنائزي في مكان آخر، على الضفة الغربية من طيبة. وكان هذا الفصل بين مكان الدفن ومكان العبادة والقرايين من السمات المهمة للنظام الجنائزي في الدولة الحديثة. وتؤكد آثار طيبة أن ملوك هذه الفترة حُفرو لهم في الجبال مقابر مزينة بنصوص ومشاهد دينية تتعلق بالعالم الآخر.

وهكذا ظهر وادي الملوك، ذلك الوادي الصخري الذي يبدو لنا اليوم هادئاً وجافاً، لكنه كان بالنسبة إلى المصريين فضاءً دينياً شديد الأهمية. لم يكن اختيار المكان عشوائياً؛ فجمال طيبة الغربية كانت جزءاً من المشهد المقدس

المرتبط بالموت وغروب الشمس، وفي الوقت نفسه أتاحت الصخور إنشاء مقابر عميقة داخل الجبل، بعيداً عن شكل المقبرة الهرمية المكشوفة.

لكن المصريين لم يتخلوا عن فكرة القبر بوصفه بيتاً للميت. لقد تغير الشكل، بينما بقيت الفكرة الأساسية الميت يحتاج إلى مكان يحفظ جسده، وقرابين تغذي وجوده، ونصوص تساعد على عبور العالم الآخر وهنا أصبحت جدران المقبرة نفسها جزءاً من الرحلة.

في مقابر الدولة الحديثة ظهرت نصوص ومشاهد دينية تصف العالم الذي يعبره الميت خلال الليل، وأصبح لدينا عدد من التقاليد النصية المختلفة، من بينها كتاب العالم الآخر المعروف باسم الأمدوات، وكتاب البوابات، وكتب أخرى تصف السماء والعالم السفلي ومسارات الشمس. ولم تكن هذه الكتب كتاباً واحداً ثابتاً، بل مجموعات من النصوص والتصورات تطورت عبر الزمن، واستخدمت خصوصاً في المقابر الملكية. وفي الأمدوات مثلاً تُقسم رحلة الليل إلى اثنتي عشرة ساعة، يمر خلالها رع في العالم السفلي، وفي قلب الليل يلتقي رع بأوزير في تصور يجمع بين الموت والتجدد؛ ثم تشرق الشمس من جديد مع الصباح.

وهذه الفكرة تكشف شيئاً عميقاً في الدين المصري الموت لم يكن نهاية القصة، بل جزءاً من دورة التجدد. الشمس تموت كل مساء ثم تعود، وأوزير يموت ثم يرتبط بالبعث، والملك الميت يدخل عالم الآلهة لكي يستمر في الوجود بصورة جديدة. ولهذا لم يكن المصريون يضعون الطعام والتمائم والتمائيل في المقبرة لمجرد الزينة. كان لكل شيء وظيفة دينية أو سحرية أو رمزية. وحتى التماثيل الصغيرة المعروفة باسم الشوابتي كان يُعتقد أنها تستطيع أن تحل محل المتوفى في الأعمال التي قد تُطلب منه في العالم الآخر.

وقد عُثر في مقبرة يويا وتجويو، وهما والدا الملكة تبي، على شوابتي تحمل نصاً من الفصل السادس من كتاب الموتى مخصصاً لهذا الغرض.

والأمر اللافت أن هذه المعتقدات لم تكن مقتصرة على الملوك وحدهم. صحيح أن المقابر الملكية كانت أكثر فخامة، لكن موظفين وكهنة وأفراداً من النخبة حصلوا أيضاً على مقابر ونصوص جنائزية معقدة. ومن الأمثلة المهمة مقبرة سوبك موسى، أحد كبار الموظفين في عهد أمنحتب الثالث، التي تحمل نصوصاً وصلوات لآلهة العالم الآخر، ومشاهد لأنوبيس وأوزير، ومقتطفات من كتاب الموتى إلى جانب نصوص أقدم. وهذا يعني أن المعرفة الدينية التي كانت في بداياتها مرتبطة بالملك وحده أصبحت، عبر القرون، متاحة بدرجات مختلفة لشرائح أوسع من المجتمع.

حتى تجربة أخناتون لم تستطع محو هذه التقاليد تماماً. فقد عُثر على أكثر من مئتي قطعة من الشوابتي المرتبطة بأخناتون، وهو أمر مهم لأنه يدل على استمرار بعض الممارسات الجنائزية التقليدية في فترة العمارنة، رغم التحول الديني الكبير الذي قاده الملك. لكن شوابتي أخناتون تختلف عن المعتاد؛ فهي تحمل أسماءه وألقابه ولا تحمل الصيغة التقليدية الكاملة لنص الشوابتي.

وهنا نرى مرة أخرى أن التاريخ أكثر تعقيداً من فكرة أخناتون ألغى الدين القديم ثم أعاده توت عنخ آمون. فالتحول كان عميقاً فعلاً، لكن التقاليد القديمة لم تختفِ بالكامل حتى في قلب التجربة العمارنية.

مجوهرات من خارج كوكب الأرض (حديد السماء)

أكبر صدمة علمية هزت قطاع الآثار هي الخنجر والمجوهرات التي وُجدت في مقبرة توت عنخ آمون. عند تحليل معدن الخنجر وبعض التماثيل، تبين أنها

مصنوعة من حديد نيازك سقطت من الفضاء الخارجي! الفراعنة كانوا يطلقون عليه اسم بي-إن-بيت (أي حديد السماء). الصدمة هنا هي أنهم استطاعوا تطويع وتشكيل حديد النيازك الصلب بدقة متناهية قبل عصر صهر الحديد بقرون طويلة، معتبرين أن من يرتدي معدناً ساقطاً من السماء يحظى بحماية إلهية مباشرة لا تُخترق.

الموت لم يكن متساوياً بين المصريين

وكانت هناك طبقات واضحة في تجهيز الموتى. فالملك يملك مقبرة ضخمة، وكهنة وموظفون وخدم ومئات القطع الجنائزية، بينما يحصل الإنسان العادي على تجهيز أبسط بكثير. ومع ذلك، لم يكن الفرق مجرد فرق في الثروة؛ بل كان يعكس أيضاً مكانة الشخص داخل النظام الاجتماعي وقدرته على الوصول إلى المؤسسات الدينية والحرفيين.

لكن إحدى مفاجآت الدولة الحديثة أن وادي الملوك لم يكن مخصصاً للملوك وحدهم بصورة مطلقة. فقد دُفن فيه بعض الأشخاص المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالقصر، حتى وإن لم يكونوا من الأسرة الملكية. ومن الأمثلة يويا وتجويو، وكذلك سنتتاي، التي كانت مرضعة للملك، وحصلت على تجهيزات جنائزية في المقبرة الملكية.

وهذا يعطينا لمحة جميلة عن شبكة العلاقات داخل القصر لم تكن القرابة وحدها هي التي تحدد مكانة الشخص؛ فالوظيفة الملكية والقرب من الأسرة الحاكمة يمكن أن يرفعا مكانته إلى مستوى استثنائي.

أما توت عنخ آمون، فقد جمع لنا هذا العالم كله في مقبرته.

فَعدَما اكتُشفت مقبرته عام ١٩٢٢، لم يكن الاكتشاف مهمًا فقط بسبب الذهب والقناع الشهير. الأهم أنه أعطانا فرصة نادرة لرؤية منظومة الدفن الملكي وهي ما تزال محتفظة بجزء كبير من محتوياتها. ويصف المتحف البريطاني مقبرته بأنها المقبرة الملكية الوحيدة تقريبًا من عصر الدولة الحديثة التي عُثر عليها بحالة شبه كاملة، وقد كشفت محتوياتها عن تفاصيل واسعة من الطقوس الجنائزية والفنون والحرف الملكية. لكن حتى مقبرة توت عنخ آمون تطرح سؤالًا مثيرًا هل كانت هذه المقبرة مصممة أصلاً له؟

صغرها مقارنة ببعض المقابر الملكية، وترتيب غرفها، وسرعة تجهيزها بعد وفاته، كلها دفعت الباحثين إلى مناقشة احتمال أنها لم تكن مخططة أصلاً كمدفن ملكي كبير ثم جرى تكييفها عند موته المبكر. هذه المسألة لا ينبغي أن نحسمها دون تحفظ، لكنها تذكرنا بأن موت الملك الشاب ربما فرض على الدولة عملية دفن سريعة ومختلفة عن المشروعات الملكية الطويلة المعتادة. وبعد توت عنخ آمون لم تعد الأسرة الثامنة عشرة قادرة على الاستمرار طويلاً. ظهر حورمحب، وهو رجل ذو خلفية عسكرية، وسيصبح آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وفي عهده بدأت الدولة تعيد بناء مؤسساتها بعد اضطرابات العمارنة، كما عمل على إعادة تثبيت النظام الملكي والديني. ثم انتقلت مصر إلى الأسرة التاسعة عشرة، حيث ستدخل مرحلة جديدة من تاريخها. مرحلة ستأتي فيها أسماء مثل سيتي الأول ورمسيس الثاني، وستعود مصر إلى الصراع الكبير مع القوى الآسيوية، لكن هذه المرة في مواجهة قوة لا تقل شأنًا عنها الإمبراطورية الحيثية.

رمسيس الثاني وقادش (الحرب التي انتهت بمعاهدة)

جاء رمسيس الثاني إلى الحكم في الأسرة التاسعة عشرة، في وقت كانت فيه مصر والحيثيون تتنافسان على النفوذ في بلاد الشام. وبعد حملات متبادلة، وقعت المواجهة الأشهر عند قادش في بلاد الشام، نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

خَلَدَ رمسيس المعركة على جدران معابده بوصفها انتصارًا عظيمًا، وصوّر نفسه وهو يواجه قوات الحيثيين. لكن النقوش المصرية ليست سجلًا محايدًا للمعركة؛ فهي جزء من الدعاية الملكية التي تُظهر الملك منتصرًا. لذلك لا يصح أن نأخذ الصورة المصرية وحدها باعتبارها وصفًا كاملاً لما حدث. والأهم تاريخيًا أن الصراع لم ينتهِ بإبادة قوة أو إخضاع نهائي للطرف الآخر.

بعد سنوات من التنافس، اتجهت مصر والإمبراطورية الحيثية إلى اتفاق سياسي ودبلوماسي، عُقد في عهد رمسيس الثاني والملك الحيثي حتوسيلي الثالث. وتُعد المعاهدة من أقدم معاهدات السلام الدولية المعروفة نصوصها، وتضمنت التزامًا متبادلًا بالسلام والمساعدة ضد أعداء الطرف الآخر. كما تزوج رمسيس أميرة حثية في إطار هذه العلاقات.

لن أعيد سرد تفاصيل المعركة التي ذكرت في سلسلة م رحم الأرض، لكنها تُظهر تحولًا مهمًا في تاريخ مصر. الإمبراطورية التي بنت قوتها بالسلاح أصبحت تستخدم الدبلوماسية والمعاهدات والزواج الملكي إلى جانب القوة العسكرية.

حقائق من البرديات العسكرية

في عهد رمسيس الثاني، واجهت مصر خطراً مرعباً من قراصنة البحر الأبيض المتوسط عُرفوا باسم الشردان (Sherden)، وهم مقاتلون أشداء يتميزون بخوذات تحمل قروناً برونزية وسيوف طويلة. الصدمة التاريخية هي أن رمسيس الثاني بعد أن هزمهم في معركة بحرية شرسة، لم يعدمهم! بل صدم الجميع بـ العفو عنهم وتجنيدهم ليصبحوا حراسه الشخصيين وقوات النخبة في جيشه! هؤلاء المرتزقة الأجانب هم الذين أنقذوا حياة رمسيس الثاني في معركة قادش عندما حوَصر خلف خطوط الحيثيين، ليثبت التاريخ أن ذكاء الفراعنة العسكري كان يعرف كيف يحول الأعداء إلى أخلص الجنود بالمال والعفو.

اللغة الجسدية لمعركة قادش (الإعاقة السرية لرمسيس الثاني)

كلنا نقرأ في كتب التاريخ واللوحات الملحمية لرمسيس الثاني كيف أنه واجه الحيثيين في قادش بمفرده وشجاعته الخارقة. لكن خلف هذا البريق الدعائي، أظهر الفحص الطبي المعاصر لمومياء رمسيس الثاني حقيقة جسدية صادمة أثرت على معاركه.

الواقع الطبي لرمسيس الثاني كان يعاني من حالة متقدمة من مرض التهاب الفقرار المقسط (Ankylosing Spondylitis)، وهو مرض مناعي تسبب في التحام كامل لفقرات عموده الفقري وتحويلها إلى ما يشبه عصا الخيزران الصلبة. هذا يعني أن الملك العظيم في سنواته الأخيرة وأثناء بعض حملاته الحربية لم يكن قادراً على الالتفات يميناً أو يساراً أو الانحناء على الإطلاق! كان يتحرك ككتلة صلبة واحدة، وتطلب ركوبه العجلة الحربية أحزمة وتثبيتاً

هندسياً خاصاً في وسط العجلة لحمايته من السقوط أثناء دوران الخيل، مما يثبت أن صراعه العسكري مع الحِيثِيِّين كان معركة إرادة وتحذُّ لإعاقة جسدية قاسية.

وفي عهد رمسيس الثاني بلغت العمارة الملكية ذروة أخرى؛ فقد جعل بر رمسيس في شرق الدلتا عاصمة ملكية كبرى ومركزاً تجارياً وعسكرياً ودينياً، وبنى معابد ضخمة في أنحاء مصر والنوبة، ومن أشهرها معبد أبو سمبل. لكن بعد رمسيس الثاني ستبدأ الصورة بالتغير تدريجياً. ستظهر صراعات على العرش، وتراجع قوة الدولة في بعض المناطق، ثم سيصل بنا المسار إلى رمسيس الثالث، حيث سنشهد واحدة من آخر فترات القوة الكبرى للدولة الحديثة، ومواجهة مصر لما عُرف بشعوب البحر، قبل أن تبدأ مصر تدخل مرحلة طويلة من التراجع والتجزؤ.

وهناك سنرى أن المشكلة لم تعد عدوً خارجياً واحداً، بل أزمة داخلية واقتصادية وسياسية تتراكم فوق دولة أنهكتها قرون من التوسع والحروب والإنفاق الضخم على القصور والمعابد والجيش.

المخابرات الحربية بالحيوانات الشرسة

(تكتيك الرعب النفسي في المعارك)

لم تكن الجيوش الفرعونية تخرج للمعارك في الشام برفقة الخيول والعجلات فحسب، بل كانت الاستخبارات العسكرية تدرب حيوانات كاسرة حية (مثل الأسود المدربة والفهود الشرسة) وتمشي بها في مقدمة خطوط المشاة. تذكر اللوحات العسكرية أن الملك رمسيس الثاني كان يملك أسداً حيواناً أليفاً ومدرّباً حربياً يُدعى مستجيب الأعداء؛ كان ينام بجوار خيمته الملكية في

معسكرات الجيش، وفي لحظة الصفر، كان يُطلق الأسد في مقدمة المعركة، مما يسبب رعباً نفسياً هستيرياً وهلعاً في صفوف خيول الحيثيين والأعداء قبل أن تلتقي الدروع؛ فالاستخبارات الفرعونية طوعت الطبيعة لتكون سلاحاً نفسياً كاسحاً.

موسى عليه السلام وفرعون مصر

تحتل قصة النبي موسى عليه السلام مكانة بارزة في الروايات الدينية المرتبطة بمصر القديمة. تروي هذه الروايات أنه وُلد في زمن أمر فيه فرعون بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، فوضعت أمه في صندوق وألقته في النيل، فعثرت عليه أسرة فرعون ونشأ في القصر. وبعد سنوات، عاد موسى إلى مصر حاملاً رسالة تدعو فرعون إلى إطلاق بني إسرائيل، وارتبطت قصته بمواجهة بين الإيمان والسلطة، وبالرواية الشهيرة عن خروج بني إسرائيل من مصر وعبرهم البحر.

وتتضمن القصة عناصر ترتبط مباشرة بمصر، من النيل والقصر الملكي إلى سلطة الفرعون ومكانة بني إسرائيل في البلاد. ولهذا تشغل حيزاً مهماً في التراث اليهودي والمسيحي والإسلامي، وتثير أسئلة عن طبيعة المجتمع المصري القديم وعلاقته بالجماعات القادمة من بلاد الشام.

أما تاريخياً، فلم يُحدّد العصر الذي عاش فيه موسى عليه السلام بصورة قاطعة، ولم يُعثر على سجل مصري معاصر يذكره بالاسم أو يثبت أحداث الخروج كما وردت في الروايات الدينية. وقد اقترح باحثون تواريخ مختلفة، من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لكن لا يوجد اتفاق نهائي على تحديد الفرعون المقصود أو زمن الأحداث. لذلك ينبغي

عرض القصة بوصفها رواية دينية ذات صلة وثيقة بذاكرة مصر، مع التمييز بين الإيمان بمضمونها وبين ما تثبته الأدلة التاريخية والأثرية المستقلة.

رمسيس الثالث (آخر وهج للدولة الحديثة)

بعد رمسيس الثاني، استمرت الأسرة التاسعة عشرة فترة، ثم انتقلت مصر إلى الأسرة العشرين، وكان من أبرز ملوكها رمسيس الثالث. وصل إلى الحكم في وقت كانت فيه المنطقة كلها تمر باضطراب واسع في نهاية العصر البرونزي، وكانت ممالك ومدن كبرى في شرق المتوسط تتعرض للانهايار أو التدمير، ومن بينها مراكز مرتبطة بالإمبراطورية الحيثية. لذلك لم تكن مصر تواجه أزمة محلية فقط، بل عالمًا إقليميًا يتغير من حولها.

ومن أشهر أحداث عهده ما عُرف باسم شعوب البحر. ولا ينبغي أن نتخيلهم شعبًا واحدًا أو دولة واحدة؛ فالاسم حديث نسبيًا، والمصادر المصرية تذكر مجموعات متعددة، منها البلست والتجر والشكلش والدانين والويشوش. أما أصول هذه الجماعات وعلاقتها ببعضها فما زالت موضع نقاش، ولا يوجد دليل يسمح باختزالها كلها في شعب واحد مهاجر من مكان واحد.

وصلت هذه الجماعات إلى مناطق الساحل الشرقي للمتوسط، بعضها بحرًا وبعضها برًا، في وقت كانت فيه أنظمة سياسية قديمة تنهار. وتُظهر نقوش مدينة هابو رمسيس الثالث وهو يعلن انتصاره عليهم، كما تصور المعارك البرية والبحرية. لكن هذه النقوش، مثل النقوش الملكية التي رأيناها في قادش، يجب قراءتها بوصفها سجلًا ملكيًا احتفاليًا ودعائيًا أيضًا؛ فهي تقدم انتصار الملك بأقوى صورة ممكنة. والدراسات الأثرية الحديثة تشير إلى أن انهيار العصر البرونزي كان نتيجة مجموعة عوامل سياسية واقتصادية وبيئية وعسكرية متشابكة، وليس نتيجة شعوب البحر وحدها.

الشفرة البحرية العسكرية لـ رمسيس الثالث (معركة شعوب البحر)

تحدث كل الكتب عن معارك رمسيس الثاني في قادش، وتغفل أعظم معركة دفاعية أنقذت مصر من الفناء الكلي في عهد رمسيس الثالث، وهي معركة دلتا النيل البحرية.

واجهت مصر غزواً مرعباً من شعوب البحر الذين دمروا حضارات بأكملها في البحر المتوسط (مثل طروادة والحيثيين). رمسيس الثالث لم يواجههم في عرض البحر لأن سفنه كانت أصغر، بل استدرج أساطيلهم الضخمة بذكاء شديد داخل الممرات الضيقة لمصببات نهر النيل بالدلتا حيث يقل عمق المياه.

(المصيدة اللوجستية) عندما علقت سفن الأعداء الضخمة في الممرات الضحلة ولم تعد قادرة على الدوران، كان جنود الفراعنة (الرماة) ينتظرونهم على الشواطئ، وقاموا بـ أمطارهم بآلاف السهام المشتعلة وحبال الخطافات التي قلبت سفنهم وسحبتهم للماء. هذه المعركة هي أول معركة بحرية تكتيكية موثقة بالكامل في التاريخ، ولولاها لمُحيت حضارة الفراعنة من الوجود قبل آلاف السنين.

استطاعت مصر صد الهجمات، وحافظ رمسيس الثالث على الدولة من الانهيار الذي أصاب قوى أخرى في المنطقة. لكن الانتصار العسكري لم يعنِ أن مصر خرجت من الأزمة سالمة.

ففي أواخر عهده ظهرت واحدة من أقدم إضرابات العمال الموثقة في التاريخ. ففي دير المدينة، حيث كان يعيش الحرفيون الذين ينحتون ويزينون المقابر الملكية، احتج العمال بسبب تأخر حصصهم من الحبوب والمؤن. وهنا تظهر لنا صورة مختلفة تماماً عن مصر التي نراها في النقوش الملكية الدولة التي كانت تملأ المعابد بالذهب والتماثيل بدأت تواجه مشكلات في إيصال أجور

العمال ومواردهم. وكان مجتمع دير المدينة مجتمعاً منظماً نسبياً، يضم نحاتين ورسامين وكتبة وحرفيين يعيشون مع أسرهم، ولذلك وصلتنا منه وثائق كثيرة تكشف تفاصيل الحياة اليومية. وكانت هذه الأزمة علامة على مشكلة أكبر الثروة لم تعد تصل إلى جميع مؤسسات الدولة بالانتظام نفسه.

ومع مرور الوقت، ازداد نفوذ معابد آمون في طيبة وثرواتها، بينما أصبحت السلطة الملكية تواجه ضغوطاً اقتصادية وسياسية متزايدة. وبعد وفاة رمسيس الثالث، توالى ملوك يحملون اسم رمسيس، لكن قوة الأسرة العشرين أخذت تتراجع تدريجياً. وفي النهاية لم يعد الملك يملك القدرة نفسها على التحكم في البلاد كلها، وبدأت السلطة تنقسم بين مراكز متعددة. وفي طيبة سبرز نفوذ كهنة آمون إلى درجة كبيرة، بينما سيصبح شمال البلاد أكثر ارتباطاً بمراكز الحكم في الدلتا. وهكذا تنتهي الدولة الحديثة، لا بسقوط مفاجئ يشبه انهيار مدينة في يوم واحد، بل بتآكل تدريجي لقوة الدولة المركزية.

ومع ذلك، لم تختف الحضارة المصرية، ولم تنته ثقافتها ولا ديانتها ولا لغتها. ما حدث هو أن مصر دخلت مرحلة جديدة، ستتغير فيها طبيعة الحكم مرات عديدة، وستظهر أسر حاكمة من أصول مختلفة، وستصبح النوبة في بعض الفترات صاحبة دور لم تكن قد امتلكته من قبل. وهنا ندخل إلى الفترة الانتقالية الثالثة؛ زمن انقسام السلطة بين الشمال والجنوب، وصعود كهنة آمون، وظهور ممالك وقوى ليبية في الدلتا. ثم، بعد ذلك بقليل، سيحدث أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى تاريخ مصر ستأتي أسرة حاكمة من الجنوب، من كوش، وتحكم مصر نفسها. وسيكون ذلك هو العصر النوبي والأسرة الخامسة والعشرين.

يوسف عليه السلام ومجاعة السنوات السبع

ترتبط مصر في الذاكرة الدينية بقصة النبي يوسف عليه السلام، الذي انتقل إليها بعد أن ألقاه إخوته في البئر، ثم مرّ بتجارب قاسية قبل أن يصل إلى مكانة رفيعة في بلاط ملكها. وتروي القصة أنه فسّر رؤيا الملك التي بشرت بسبع سنوات من الخصب يعقبها سبع سنوات من القحط، فاقترح خطة تقوم على زراعة الأرض في سنوات الرخاء، والاحتفاظ بجزء من المحصول وتخزينه لمواجهة سنوات الشدة. وبفضل هذه الخطة، أصبحت إدارة الغذاء وتدبير المخزون وسيلة لحماية السكان من المجاعة، كما دفعت الأزمة أسرة يوسف إلى القدوم من كنعان طلباً للطعام، لتلتقي به من جديد بعد سنوات الفراق. وتكشف القصة، في بعدها الديني والإنساني، عن أهمية التخطيط للمواسم الصعبة، وعن الدور الذي يمكن أن تؤديه إدارة المحاصيل وتخزينها في مواجهة الأزمات. أما من الناحية التاريخية، فلم يُحسم العصر الذي عاش فيه يوسف عليه السلام، ولا توجد حتى الآن أدلة مصرية مستقلة تثبت شخصيته أو تحدد زمن أحداث القصة بصورة قاطعة؛ لذلك ينبغي عرضها بوصفها رواية دينية ذات صلة عميقة بذاكرة مصر، مع التمييز بين مضمونها الديني وما يمكن إثباته أثرياً وتاريخياً.

الكوشيون (حين جاء ملوك الجنوب إلى عرش مصر)

لم تكن الفترة التي أعقبت الدولة الحديثة مجرد فراغ بين عصرين. وفي القرن الثامن قبل الميلاد تقريباً، ظهر ملوك كوش الذين سيشكلون الأسرة الخامسة والعشرين، وهي الأسرة التي حكم فيها ملوك من أصل نوبي مصر بوصفهم فراعنة. وتظهر آثارهم أنهم لم يتعاملوا مع الحكم باعتباره قطيعة مع مصر؛ بل قدموا أنفسهم باعتبارهم ملوكاً مصريين يحافظون على الآلهة

والتقاليد القديمة. وقد ارتبط حكمهم بصورة خاصة بإحياء تقاليد مصرية أقدم في الفن والعمارة والعبادة.

وكان من أبرز هؤلاء بيا، الذي وسع نفوذه من الجنوب إلى مصر، ثم خلفه شباكا وشبتاكا وتهارقا. وكان تهارقا خصوصاً من أشهر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، وترك آثاراً كثيرة في مصر والنوبة، كما ارتبط اسمه بمشروعات بناء وترميم للمعابد.

واللافت أن الكوشيين لم يفرضوا ثقافة مختلفة على مصر ثم يلغوا ما سبقها؛ بل تبنوا جزءاً كبيراً من الهوية الملكية المصرية. كانوا يرتدون التيجان الملكية ويستخدمون الألقاب المصرية، ويقدمون القرابين للآلهة المصرية. وفي الوقت نفسه احتفظوا بسمات خاصة بهم، مثل التاج الكوشي والرموز المرتبطة بكوش. وتظهر التماثيل بوضوح هذا المزج بين التقليد المصري والهوية الكوشية. وهنا تظهر نقطة مهمة في تاريخ مصر لم تكن مصر دائماً هي التي تؤثر في النوبة؛ ففي هذه المرحلة انعكس الاتجاه، وأصبح الجنوب يحكم مصر نفسها.

وكانت علاقة الكوشيين بآمون شديدة الأهمية. فقد كان آمون إلهاً رئيسياً في طيبة، وكان له أيضاً مركز عبادة عظيم في جبل البركل في كوش. ولذلك استطاع الملوك الكوشيون تقديم حكمهم بوصفه عودة إلى النظام الديني الصحيح، لا مجرد احتلال أجنبي. وهذا يفسر اهتمامهم الكبير بالمعابد والطقوس والتماثيل. لكن مصر لم تكن وحدها في هذا العالم. ففي الشمال كانت قوة جديدة تزداد خطورة الإمبراطورية الآشورية.

كان الآشوريون في القرن السابع قبل الميلاد قوة عسكرية كبرى تسيطر على مناطق واسعة من الشرق الأدنى، وكان وجود مصر في بلاد الشام يمس

مصالحهم مباشرة. لذلك أصبح الصراع بين كوش ومصر من جهة وآشور من جهة أخرى جزءاً من صراع أكبر على بلاد الشام وطرق التجارة والنفوذ. وفي عهد تهارقا وصلت المواجهة إلى مرحلة خطيرة. دخل الآشوريون مصر، واستطاعوا الاستيلاء على منف سنة ٦٧١ ق.م تقريباً، واضطر تهارقا إلى التراجع جنوباً. ثم عاد وحاول استعادة نفوذه، واستمرت المواجهة. وتذكر المصادر الآشورية انتصاراتها بالطبع، لكن الأحداث اللاحقة تبين أن السيطرة لم تكن مستقرة دائماً؛ فقد ظل نفوذ تهارقا قائماً في أجزاء من صعيد مصر حتى وفاته. ثم جاء تانوت آمون، آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في مصر، وحاول استعادة الشمال. تمكن فعلاً من استعادة منف لفترة، لكن الآشوريين عادوا بقوة أكبر، وانتهى الأمر بانسحاب الحكم الكوشي من مصر. وبذلك انتهت مرحلة حكم الكوشيين لمصر، لكن مملكة كوش نفسها لم تنته؛ فقد استمرت في الجنوب قروناً طويلة بعد خروجها من مصر.

ومن المفارقات الجميلة أن بعض ملوك كوش الذين حكموا مصر دُفِنوا في وطنهم الجنوبي، في أهرام النوبة، وليس في وادي الملوك. وتظهر شواهد ذلك في مدافن نوري وغيرها، ومنها الشوابتي الخاص بالملك تهارقا.

وهكذا تنتهي الأسرة الخامسة والعشرون، لكن مصر لا تعود ببساطة إلى ما كانت عليه قبل الكوشيين. فقد دخلت البلاد مرحلة جديدة، وستظهر فيها أسرة مصرية من سايس في دلتا النيل ستنتج في إعادة توحيد البلاد واستعادة استقلالها من النفوذ الآشوري. إنها الأسرة السادسة والعشرون، وبدايتها مرتبطة بملك اسمه بسماتيك الأول، ومعه ستدخل مصر عصراً مختلفاً عصراً تحاول فيه استعادة مجد الماضي، بينما تتغير الخريطة السياسية للعالم من حولها بسرعة.

الأسرة السادسة والعشرون (حين حاولت مصر أن تستعيد نفسها)

بعد خروج الكوشيين من مصر، بقيت البلاد بحاجة إلى إعادة بناء سلطتها، وفي الشمال برزت سايس في الدلتا مركزاً لقوة سياسية جديدة. ومن هناك جاء بسماتيك الأول، الذي حكم من ٦٦٤ إلى ٦١٠ ق.م، وأصبح من أبرز ملوك الأسرة السادسة والعشرين، المعروفة باسم الأسرة الساوية نسبة إلى مدينة سايس. كان صعوده جزءاً من عملية أوسع لإعادة توحيد مصر بعد عقود من الانقسام والتدخل الآشوري. ومع تراجع القوة الآشورية، استطاع بسماتيك أن يثبت سلطته على البلاد، ويؤسس مرحلة من الاستقرار النسبي استمرت في جزء كبير من الأسرة السادسة والعشرين. لكن ما يميز هذا العصر ليس السياسة وحدها؛ بل النظرة إلى الماضي.

فالفن الساوي عاد بقوة إلى تقاليد العصور المصرية القديمة. نرى تماثيل تعتمد استحضار الأساليب القديمة، وأحياناً يكون التقليد متقناً إلى درجة تجعل تحديد تاريخ القطعة صعباً من مظهرها وحده، ولا تكشف الفترة الحقيقية إلا النقوش. ولهذا يتحدث المؤرخون عن نزعة إحيائية أو استعادية في فن هذه المرحلة. وكأن مصر، وهي تواجه عالماً جديداً من حولها، كانت تقول نحن لسنا شعباً جديداً؛ نحن أصحاب تاريخ يمتد آلاف السنين.

وفي الوقت نفسه لم تكن مصر معزولة عن العالم. ازدادت أهمية الاتصال باليونانيين والفينيقيين وغيرهم، وظهرت جماعات أجنبية في مصر، كما خدم جنود أجانب في الجيش المصري. وأصبحت الموانئ والمراكز التجارية جزءاً مهماً من الحياة الاقتصادية، ومن أشهرها لاحقاً نقراتيس في الدلتا، التي أصبحت مركزاً للتجارة وموضع وجود يوناني دائم. ولم يكن هذا الانفتاح

تناقضا مع العودة إلى التقاليد المصرية. فقد استطاعت مصر في العصر
الساوي أن تجمع بين إحياء الماضي والتعامل مع عالم متغير.

ومن الملوك المهمين بعد بسماتيك الأول ابنه بسماتيك الثاني، الذي اهتم
بالنوبة، وأرسل حملة عسكرية جنوباً سنة ٥٩٣ ق.م تقريباً. وتوثق نقوش
يونانية وفينيقية وكارية (نسبة إلى كاريا وهي منطقة تاريخية في جنوب
غرب آسيا الصغرى أي الجزء الجنوبي الغربي من تركيا الحالية وهم شعباً
عُرف بعضهم بالعمل جنوداً مرتزقة في جيوش ممالك مختلفة) في أبو سمبل
مرور القوات المصرية، كما تذكر قائدتين للحملة، أحدهما يقود القوات
المصرية والآخر القوات الأجنبية.

ثم جاء واح إب رع، المعروف في المصادر اليونانية باسم أپريز، وبدأت في
عهده اضطرابات داخلية انتهت بصراع على العرش، ثم صعود قائد عسكري
أصبح ملكاً هو أحمس الثاني، أو أماسيس. ومن عهده نملك أدلة كثيرة على
استمرار النشاط البحري والعسكري والتجاري، وعلى بقاء مصر جزءاً من
شبكة متوسطة واسعة. لكن بينما كانت مصر تحاول استعادة توازنها، كانت
قوة جديدة قد أصبحت أخطر من آشور نفسها الإمبراطورية الفارسية.

وفي سنة ٥٢٥ ق.م دخل الملك الفارسي قمبيز الثاني مصر، وهُزم بسماتيك
الثالث، آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين. وبذلك أصبحت مصر جزءاً من
الإمبراطورية الأخمينية، وبدأت الأسرة السابعة والعشرون، وهي أول فترة
حكم فارسي كبرى في مصر. ويضع التسلسل الزمني المصري التقليدي بداية
هذه المرحلة عند ٥٢٥ ق.م.

وهنا ندخل إلى فصل مهم جداً؛ لأن مصر للمرة الأولى منذ عصور بعيدة
ستجد نفسها تحت حكم إمبراطورية كبرى قادمة من خارج وادي النيل، ثم

ستثور عليها، وتستعيد استقلالها فترة قصيرة، ثم تعود إلى الحكم الفارسي مرة أخرى. وبعد ذلك سيصل إلى مصر رجل سيغيّر تاريخها إلى الأبد الإسكندر المقدوني.

الفرس والإسكندر (حين دخل العالم الجديد إلى مصر)

لم يكن دخول الفرس إلى مصر سنة ٥٢٥ ق.م مجرد تبديل أسرة حاكمة بأخرى. كانت الإمبراطورية الأخمينية في ذلك الوقت واحدة من أوسع الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، تمتد من مناطق في آسيا الوسطى وإيران إلى بلاد الشام ومصر. وأصبحت مصر ولاية داخل هذه الإمبراطورية، مع بقاء كثير من مؤسساتها المحلية ودينها ومعابدها، لأن الفرس، رغم كونهم القوة الحاكمة، احتاجوا إلى التعامل مع البنية الإدارية والدينية المصرية القائمة. ولم يكن الحكم الفارسي مستقرًا طوال الوقت. فقد شهدت مصر ثورات ومحاولات لاستعادة الاستقلال، وتمكنت من الخروج من السيطرة الفارسية لفترات قصيرة، قبل أن تعود الجيوش الفارسية إليها. لذلك لم تكن القرون الأخيرة قبل الإسكندر مجرد مصر تحت حكم أجنبي، بل كانت مرحلة من المقاومة والاستقلال المؤقت والعودة إلى السيطرة الفارسية. ثم تغير ميزان القوى في الشرق الأدنى كله.

ظهر الإسكندر المقدوني، الذي هزم الإمبراطورية الفارسية في سلسلة من الحملات، وبعد أن سيطر على بلاد الشام توجه جنوبًا نحو مصر. وفي سنة ٣٣٢ ق.م دخل مصر، ولم يواجه مقاومة كبيرة تذكر، واستقبل بوصفه محررًا من الحكم الفارسي في بعض المصادر، ثم جرى تقديمه في الإطار المصري التقليدي باعتباره ملكًا شرعيًا. وهنا فعل الإسكندر شيئًا بالغ الذكاء

سياسيًا لم يحاول أن يحكم المصريين باعتباره ملكًا أجنبيًا فحسب، بل دخل إلى عالمهم الديني والملكي.

زار معبد آمون في واحة سيوة، وهناك ارتبط اسمه بآمون، الذي كان الإغريق يماثلونه بالإله زيوس-آمون. وقد أصبحت زيارة سيوة جزءًا أساسيًا من الصورة التي بُنيت حول الإسكندر في مصر والعالم اليوناني، لكن التفاصيل الدقيقة لما قيل له في المعبد وما حدث داخله وصلت إلينا من روايات لاحقة، ولذلك ينبغي ألا نتعامل مع كل قصة حول النبوة وكأنها محضر رسمي محفوظ. (الروايات حول استشارة الوحي في سيوة)

وفي مصر اتخذ الإسكندر الألقاب الملكية المصرية، وظهرت صورته في الفن المصري بالطريقة التي اعتاد المصريون أن يصوروا بها ملوكهم، وهو أمر مهم جدًا لم يحاول إلغاء الهوية الملكية المصرية، بل استخدمها لتثبيت شرعيته. ثم حدث شيء سيغير تاريخ مصر والعالم المتوسطي كله.

على ساحل البحر المتوسط، في موضع قريب من قرية مصرية قديمة تُعرف باسم راكوتيس، أسس الإسكندر مدينة حملت اسمه الإسكندرية.

لم يعيش الإسكندر طويلًا بعد ذلك؛ فقد غادر مصر وتابع حملاته شرقًا، ومات في بابل سنة ٣٢٣ ق.م. لكن المدينة التي أسسها بقيت، وتحولت خلال العقود التالية إلى واحدة من أعظم مدن العالم القديم. وبعد موته تفككت إمبراطوريته بين قادته. وفي مصر تمكن أحدهم، بطليموس بن لاجوس، من تثبيت سلطته. وفي البداية كان حاكمًا لمصر باسم النظام الذي نشأ بعد وفاة الإسكندر، ثم أعلن نفسه ملكًا سنة ٣٠٥ ق.م تقريبًا، مؤسسًا الأسرة البطلمية.

وهنا تبدأ مصر فصلًا جديدًا تمامًا.

فالحكام الجدد كانوا مقدونيين-يونانيين، لكنهم حكموا بلدًا مصريًا عمره آلاف السنين. ولذلك لم يكن أمامهم إلا أن يعيشوا الازدواجية نفسها التي سنراها كثيرًا في العصر البطلمي ملك يوناني في البلاط، وملك مصري في المعبد؛ لغة يونانية في الإدارة الملكية، ولغة مصرية في المعابد؛ آلهة مصرية قديمة، إلى جانب آلهة وتقاليد يونانية وكانت الإسكندرية نفسها صورة لهذا العالم الجديد. مدينة متوسطة ذات طابع يوناني، لكنها واقفة على أرض مصر، ومتصلة بالنيل والدلتا والبحر المتوسط. وفيها اجتمع التجار والجنود والموظفون والعلماء والمصريون واليونانيون وغيرهم من سكان العالم القديم. ومن هنا ستظهر واحدة من أشهر المؤسسات العلمية في التاريخ مكتبة الإسكندرية.

لكننا يجب أن نكون حذرين هنا أيضًا، لأن الصورة الشعبية عن المكتبة باعتبارها مبنى واحدًا هائلًا امتلأ بكل كتب العالم ثم احترق في حادثة واحدة ليست الصورة التي تسمح بها الأدلة التاريخية. كانت هناك مؤسسات ومجموعات كتب مرتبطة بالمركز العلمي في الإسكندرية، ومرت المكتبات عبر تاريخ المدينة الطويل بمراحل مختلفة من التلف والفقدان. أما قصة الحريق الواحد الذي قضى على مكتبة الإسكندرية كلها فهي تبسيط شديد لتاريخ أكثر تعقيدًا.

والأجمل أن العصر البطلمي لن يكون مجرد قصة حكام أجانب في مصر. ففيه ستتداخل الفلسفة اليونانية مع الدين المصري، والطب مع المعابد، والفلك مع التقويم، واللغة المصرية مع اليونانية، والتجارة مع البحر المتوسط. وستظهر أيضًا شخصية نسائية ستختم لنا تقريبًا آخر فصل كبير من تاريخ مصر الفرعونية كليوباترا السابعة.

كليوباترا (آخر ملكة لمصر القديمة)

عندما وصلت كليوباترا السابعة إلى العرش سنة ٥١ ق.م، كانت مصر البطلمية قد قطعت أكثر من قرنين منذ وفاة الإسكندر. كانت الأسرة الحاكمة مقدونية الأصل، لكن ملوكها عاشوا داخل العالم المصري، واستخدموا التقاليد المصرية لإثبات شرعيتهم. وكليوباترا نفسها كانت من أكثر أفراد الأسرة البطلمية قدرة على التحرك بين العالمين؛ فقد عُرِفَتْ بقدرتها اللغوية والسياسية، ولم تعتمد في سلطتها على صورتها كامرأة جميلة فقط. في البداية حكمت مع أخيها بطليموس الثالث عشر، وفق تقاليد الأسرة البطلمية التي عرفت الزواج داخل العائلة الحاكمة. لكن الصراع بينهما تحول إلى صراع على السلطة، واضطرت كليوباترا إلى مغادرة مصر فترة، ثم عادت عندما وصل يوليوس قيصر إلى الإسكندرية. ومن هنا دخلت روما مباشرة في مصير المملكة المصرية.

لكن صورة كليوباترا التي ورثناها من السينما واللوحات الحديثة تخفي شيئاً مهماً جداً لا نملك صورة مؤكدة تماماً لوجهها الحقيقي. لدينا تماثيل ونقوش وعملات، لكن بعضها محل نقاش، وحتى صورها على العملات تختلف في بعض التفاصيل. لذلك لا نستطيع أن نعيد بناء ملامحها بدقة كما لو كانت لدينا صورة فوتوغرافية.

والأغرب أن العملات التي تحمل صورتها لا تقدم لنا بالضرورة صورة الجميلة الأسطورية. فبعضها يظهر أنفاً بارزاً وذقناً قوياً وملامح حادة. وتذكر دراسة متحفية لعملة لكليوباترا أن ملامحها لا تتوافق مع الصورة الحديثة للمرأة الفاتنة، بل تتفق أكثر مع وصف بلوتارخ الذي ركز على ذكائها وشخصيتها وقدرتها على التأثير في الآخرين. إذاً أين كان جمال كليوباترا؟

هنا تصبح القصة أجمل. بلوتارخ، الذي كتب بعد زمن كليوباترا، لا يجعل جمالها الجسدي هو السبب الأساسي في سحرها. بل يذكر أن حضورها وحديثها وشخصيتها وطريقة كلامها كانت ذات تأثير استثنائي، وأن جاذبيتها كانت مرتبطة بشخصيتها وقدرتها على التواصل. وهذه نقطة مهمة جدًا لأن صورتها الحديثة اختزلتها في أجمل امرأة في التاريخ، بينما المصادر القديمة نفسها تعطينا شخصية أكثر تعقيدًا.

كانت كليوباترا تتقن عدة لغات، وهو أمر استثنائي داخل الأسرة البطلمية؛ وتذكر المصادر القديمة أنها كانت قادرة على مخاطبة شعوب مختلفة بلغاتهم، بدل الاعتماد دائمًا على مترجم. وهذه القدرة لم تكن مجرد ثقافة شخصية، بل أداة سياسية؛ فالملكة التي تستطيع مخاطبة الآخرين بلغتهم تستطيع بناء علاقة مختلفة تمامًا عن الحاكم الذي يتحدث من خلف مترجم.

أما أسرار جمالها بالمعنى الذي تتناقله الروايات، فهذا يجب أن نكون حذرين. انتشرت عبر القرون قصص عن حمامات الحليب والعسل، والزيوت العطرية، والعطور، ومستحضرات التجميل المنسوبة إلى كليوباترا. لكن لا توجد لدينا وصفة أصلية موثقة يمكن أن نقول عنها هذه وصفة كليوباترا للجمال. كثير مما يسمى اليوم أسرار جمال كليوباترا هو إعادة بناء حديثة أو نسب لاحق إليها. لكن استخدام مستحضرات التجميل والعطور والزيوت كان حقيقيًا فعليًا في مصر القديمة، وليس أسطورة. وكانت النساء والرجال يستخدمون مستحضرات للعين والجلد والعطور، وتوجد أدلة أثرية على أوعية ومستحضرات وأدوات تجميل تعود إلى العصور المصرية القديمة. ولذلك نستطيع القول إن كليوباترا عاشت في ثقافة تهتم بالجمال والعطر والعناية بالجسد، لكن لا نستطيع أن ننسب إليها كل وصفة تُباع اليوم باسمها.

ومن أجمل ما بقي من صورتها أن شعرها كان يُصفف بطريقة هيلينستية تُعرف بتسريحة قريبة من تسريحة البطيخ خصل أو ضفائر متموجة تُجمع إلى الخلف، مع تاج أو عصاية ملكية. وفي بعض صورها يظهر أيضاً الجمع بين الأزياء والتقاليد اليونانية والرموز المصرية، مثل الثعابين الملكية.

وهذا الجمع يلخص كليوباترا نفسها ملكة يونانية الأصل، تحكم مصر، وتستخدم رموز مصر القديمة، وتتحرك في عالم البحر المتوسط الهيلينستي والروماني في الوقت نفسه. ثم جاء مارك أنطونيوس.

لم تكن علاقتها به مجرد قصة حب كما صورتها الأعمال الأدبية. كانت بينهما علاقة سياسية أيضاً، وكان لكل منهما مصلحة في الآخر. حصلت كليوباترا على دعم ونفوذ وأراضٍ، بينما احتاج أنطونيوس إلى موارد مصر ومكانتها في صراعه على السلطة داخل العالم الروماني. وفي الوقت نفسه كانت كليوباترا تحاول حماية استقلال مصر في مواجهة القوة التي أصبحت تبتلع ممالك الشرق واحدة تلو الأخرى روما.

وانتهى الصراع في معركة أكتيوم سنة ٣١ ق.م، حيث هُزم أسطول كليوباترا وأنطونيوس أمام قوات أوكتافيان، الذي سيصبح لاحقاً الإمبراطور أغسطس. ثم جاء أوكتافيان إلى مصر.

انتحر أنطونيوس، وبعده ماتت كليوباترا سنة ٣٠ ق.م، وبوفاتها انتهى حكم الأسرة البطلمية، وأصبحت مصر ولاية رومانية.

وهنا تنتهي مصر الفرعونية المستقلة، لكن ليس تاريخ مصر.

فاللغة المصرية ستستمر، والكتابة الهيروغليفية ستستمر، والمعابد ستستمر في أداء طقوسها، وسيستمر بناء المعابد حتى العصر الروماني. وحتى أباطرة

روما سيُصَوِّرون على جدران المعابد المصرية بملابس الفراعنة، يقدمون القرابين للآلهة المصرية. وهذه مفارقة جميلة جداً سقط آخر ملك مصري مستقل، لكن الحضارة المصرية لم تسقط معه.

بل بقيت تتنفس قروناً أخرى تحت الحكم الروماني، ثم المسيحية، ثم تحولات اللغة والدين والمجتمع، إلى أن وصلت مصر القديمة في نهاية المطاف إلى اللحظة التي اختفت فيها آخر كتابة هيروغليفية معروفة.

وهناك، عند تلك الكتابة الأخيرة، سنصل إلى النهاية الحقيقية لمصر القديمة؛ لا نهاية الفراعنة سياسياً فقط، بل نهاية العالم الديني والكتابي الذي بدأناه منذ آلاف السنين.

المكياج الفرعوني

لغز الكحل الفرعوني (خداع العين ومنع الحسد)

لم تكن رسمة العين الممتدة إلى جانبي الوجه مجرد موضة، بل كانت عقيدة دافعة تسمى العين الساهرة (عين حورس) لحماية صاحبها حياً أو ميتاً. كانوا يعتقدون أن العين المفتوحة والمرسومة بكحل أسود عريض تشتت العين الشريرة (الحسد) وتمنع الأرواح الممتصة للطاقة من اختراق روح الإنسان.

المكونات السرية لكحل الجالينا (Galena): الكحل الأسود لم يكن فحماً! بل كان يُصنع من معدن الجالينا (كبريتيد الرصاص) الأسود اللامع، حيث يتم طحنه حتى يتحول إلى مسحوق ناعم جداً، ثم يخلط بدهون الحيوانات (مثل دهن الإوز)، وصمغ شجر المر، وقطرات من عصير الرمان ليعطيه ثباتاً وملمساً كريماً ناعماً.

المفاجأة الطبية (مضاد حيوي للعين) كشف العلماء المعاصرون أن مركبات الرصاص منخفضة التركيز في هذا الكحل كانت تحفز إنتاج أكسيد النيتريك في العين، وهو ما يعمل كـ مضاد حيوي طبيعي يقتل البكتيريا ويمنع التهابات العين الناتجة عن الغبار الذروي المتطاير من رمال الصحراء وذباب النيل؛ فالكحل كان بمثابة نظارة شمسية طبية ومعقم للجنسين وللأطفال أيضاً!

الكحل الأخضر (المالاكيت): قبل انتشار الكحل الأسود، كانت الملكات يستخدمن كحلاً أخضر ساحراً يُصنع من سحق حجر المالاكيت النحاسي، وكان يُرسم به الجفن السفلي للعين لأنه يرتبط بالإلهة حتحور إلهة الحب والجمال. لم يكن الماكياج (مثل الكحل الأسود) حكراً على النساء فحسب، بل وضعه الرجال أيضاً لحماية أعينهم من وهج الشمس الحارق، ولأغراض علاجية وروحانية ترتبط بالإله حورس.

الخلطات الملكية للعناية بالبشرة (أسرار كريمات كليوباترا ونفرتيتي)

كريم محاربة التجاعيد (سر شمع النحل ولبان الذكر)

عثر العلماء في البرديات الطبية على وصفة حقيقية لكريم ترطيب ومقاومة تقدم سن البشرة كانت تستخدمه الملكات.

المكونات: شمع نحل نقي، زيت اللوز الحلو، مسحوق لبان الذكر الغني بالكولاجين الطبيعي، ومستخلص زهرة اللوتس الزرقاء.

طريقة الصنع: كان يتم تذويب شمع النحل مع الزيوت العطرية على نار هادئة، ثم يُضاف لبان الذكر المطحون ويُخلط حتى يتجانس، ليتحول إلى كريم غني يحمي البشرة من الجفاف الشديد لطقس مصر الحار.

حليب الحمار والعسل المقشر

اشتهرت الملكات (خاصة كليوباترا) بالاستحمام في حوض مليء بـ حليب الحمار الطازج المخلوط بعسل النحل البري. علمياً، حليب الحمار غني بحمض اللاكتيك (Alpha Hydroxy Acid) وهو مركب حديث يُستخدم اليوم في أغلى مستحضرات العناية بالبشرة كمقشر طبيعي يزيل الخلايا الميتة ويمنح الجسم بياضاً ونعومة فائقة.

مزيل عرق من الطبيعة (الخروب والبخور)

لم يتسامح الفراعنة مع الروائح الكريهة. كانت النساء يصنعن كرات صغيرة لمكافحة رائحة العرق تتكون من مسحوق الخروب المطحون، الممزوج بالمر واللبان وشجر السنط، وكانت هذه الكرات تُفرك بها المناطق الحساسة لتعطي رائحة عطرية طبيعية تدوم لأيام وتمنع تكاثر بكتيريا العرق.

موضة الأظافر والباروكات

أول مناكير في التاريخ (الحناء الملكية)

لم تعرف الملكات طلاء الأظافر الكيميائي، بل كنّ يستخدمن نبات الحناء لصبغ أظافر اليدين والقدمين بلون برتقالي مائل للبنّي أو أحمر داكن. الغريب أن لون أظافر المومياء كان يحدد مكانتها؛ فالألوان الداكنة والفخمة حكر على العائلة الملكية، وكان هناك موظف رسمي في القصر يحمل لقب مصفف أظافر الفرعون.

الوشم (التاتو) الروحي

كشفت المومياوات النسائية (مثل مومياء الكاهنة أمونت) عن وجود وشوم (تاتو) دقيقة مرسومة بالحبر الأسود تحت الجلد على هيئة خطوط ونقاط هندسية على البطن والفخذين، ولم تكن للزينة فقط، بل كانت بمثابة تعاويذ سحرية مرسومة على الجسد لحماية المرأة أثناء فترة الحمل والولادة من الأرواح الشريرة. فقد كانت صياغة الذهب والأحجار بمثابة تكنولوجيا سحرية وحربية وطبية بالغة الدقة. أغرب وأكثر الحقائق الصادمة عن مجوهرات الفراعنة

مشدات الصدر الذهبية المرعبة

لم تعرف النساء الفراعنة الحلي الخفيفة فقط؛ بل كانت الملكات يرتدين ما يُعرف بالـ أوسخ (Usekh)، وهي قلادة صدرية دائرية ضخمة وثقيلة جداً تغطي الصدر والكتفين بالكامل، مصنوعة من صفوف متراسة من الذهب واللازورد والعقيق. الصدمة هي أن هذه القلادة كانت ثقيلة لدرجة أنها تكاد تقسم ظهر المرأة أو تؤلم عنقها، لذلك ابتكر مصممو القصر قطعة ذهبية ثقيلة تُسمى المنات (Meneat) تُعلق في نهاية القلادة من الخلف وتتدلى بين كتفي المرأة؛ لتُحدث وزناً مضاداً (Counterweight) يعادل ثقل القلادة الأمامية ويحمي عنق الملكة من الكسر! الجمال كان يتطلب هندسة فيزيائية حرفية.

خرز الأرداف المثير والتعاويذ المخفية

من القطع التي كانت تعشقها البنات والنساء في الشارع الفرعوني هي أحزمة الأرداف. كانت الفتيات يرتدين أحزمة مصنوعة من خرز الفيانس الأزرق والعقيق حول الخصر والأوراك فوق ملابس كتانية شفافة جداً. الصدمة

العقائدية هنا هي أن هذه الأحزمة لم تكن لإبراز الأثوثة فحسب؛ بل كانت الخزرات تُصنع على شكل صدقات الودع أو الأسماك الصغيرة، وكانوا يعتقدون أن حركتها واهتزازها أثناء المشي يصدران ذبذبات تطرد الأرواح الشريرة التي تسبب العقم أو تمنع الإنجاب.

الذهب الملون والمجوهرات

نعتقد اليوم أن الذهب أصفر فقط، لكن الفراعنة صدموا العلماء بمعرفتهم بكيمياء تلوين المعادن. فقد عُثر في المقابر الملكية على ذهب ذي لون وردي، ورمادي، وبرتقالي. كانوا يخلطون الذهب بنسب دقيقة من الفضة والنحاس والحديد، ويتحكمون في درجات الحرارة لإعطاء المجوهرات ألواناً تتماشى مع لون حجر اللازورد الأزرق (المستورد من أفغانستان في رحلات تجارية مرعبة) ولون حجر المالاكيت الأخضر، لتبدو المجوهرات وكأنها كائن حي يتنفس الألوان تحت أشعة الشمس.

خواتم الأختام وسلطة المرأة المطلقة

الصدمة القانونية هي أن أختام الدولة والقرارات الرسمية لم تكن حكرًا على الرجال. كانت الملكات والنساء رificات المستوى يرتدين في أصابعهن خواتم ضخمة تحمل أختاماً من حجر الجعران. وبموجب القانون الفرعوني، كان لخاتم المرأة نفس القوة القانونية لخاتم الرجل؛ فإذا ختمت المرأة الفرعونية على بردية بيع أو شراء أو حكم قضائي، كان يُنفذ فوراً ولا يمكن لأكبر رجل في الدولة إلغاؤه، مما يعكس مكانة سياسية مرعبة للمرأة في ذلك الوقت.

بول على البذور (معجزة اختبار الحمل الفرعوني)

خلف هالات السحر والتعاويذ، امتلك أطباء الفراعنة معرفة بيولوجية مذهلة سبقت عصرها بآلاف السنين، وتجلى ذلك في ابتكارهم لأول اختبار حمل دقيق وموثق في التاريخ، والذي عُثر على تفاصيله في بردتي برلين وكاهون. عندما كانت المرأة تريد معرفة إن كانت حاملاً أم لا، لم يكن الطبيب يقرأ طالعها، بل كان يطلب منها طلباً غريباً جداً أن تتبول لعدة أيام في وعاءين منفصلين؛ الأول يحتوي على بذور القمح، والثاني يحتوي على بذور الشعير. وكان القانون الطبي الفرعوني يقول إذا نبتت بذور القمح أولاً فالمرأة حامل، والجنين ذكر. إذا نبتت بذور الشعير أولاً فالمرأة حامل، والجنين أنثى. إذا لم تنبت أي من البذور فهي ليست حاملاً. المثير للدهشة، والذي جعل علماء العصر الحديث يقفون في ذهول، هو أن العلماء أخذوا هذه الوصفة الفرعونية في ستينيات القرن الماضي واختبروها في المعامل الحديثة. وكانت الصدمة أن هرمون الإستروجين الموجود في بول المرأة الحامل يُحفز بالفعل نمو البذور بنسبة دقة تتجاوز ٧٠%، بينما بول المرأة غير الحامل أو الرجل يمنع نموها! لقد عرف الفراعنة كيمياء الهرمونات وطوعوها لخدمتهم، مستخدمين مجرد حبوب من طمي النيل.

حكا

السحر في مصر القديمة لم يكن دجلاً أو شعوذة، بل كان علماً كونياً وقانوناً مقدساً يُدعى حكا (Heka). كان حكا يُدرس في بر-عنخ (بيت الحياة) الملحق بالمعابد، وكان الكهنة يعتبرونه القوة التي خلق بها الإله الكون، وبدونها لا تشرق الشمس ولا ينبض قلب. أغرب وأكثر أسرار السحر الفرعوني صدمة وغموضاً

صناعة الدمى الطينية (سحر الفودو قبل قرون)

يعتقد الكثيرون أن سحر الفودو والدمى التي تُغرس فيها الإبر هي اختراع أفريقي حديث، لكن الصدمة هي أن الفراعنة هم أول من ابتكروه واستخدموه ببراعة كقوة دفاعية وهجومية. كيف كان يعمل؟

كان الساحر أو الكاهن يصنع دمية من الشمع أو الطين تماثل شكل العدو بدقة (سواء كان ملكاً متمرداً أو سارقاً).

الشفرة السحرية: يُنقش على جسم الدمية اسم الشخص السري (الرين)، ثم تُقرأ عليها تعاويذ مأخوذة من برديات السحر الأسود. بعد ذلك، يتم غرس أشواك السمك أو الإبر في مواضع معينة من الدمية، أو يتم حرقها وتقطيعها. كان الاعتقاد قاطعاً بأن ما يحدث للدمية من ألم وتقطيع سيتجسد حرفياً في جسد الضحية الحقيقي مهما كان بعيداً.

سحر تنشيط التماثيل وحراسة المقابر

لم يثق الفراعنة بالجنود من البشر لحراسة الذهب والمجوهرات الملكية داخل المقابر؛ لأن البشر يضعفون ويموتون ويخونون. بدلاً من ذلك، اعتمدوا على سحر التنشيط الأبدي. كانوا يضعون تماثيل صغيرة لحيوانات كاسرة مثل العقارب، الأفاعي، أو الفهود بجوار التابوت. وقبل إغلاق المقبرة، يتلو كاهن طقوساً تُسمى فتح الفم والعينين للتماثيل. الاعتقاد السحري كان يفيد بأن أي لص يجروء على كسر ختم المقبرة ودخول الغرفة، ستدب الحياة سحرياً في هذه التماثيل الصغيرة لتتحول إلى وحوش أثيرية غير مرئية تهاجم اللص، أو تفرز سموماً حقيقية في هواء الغرفة تخنق الدخيل فوراً.

بردية تورين ومؤامرة الحريم (أكبر قضية سحر أسود في التاريخ)

تآمرت إحدى زوجات رمسيس الثالث (الملكة تيا) لاغتيال الملك وتعيين ابنها على العرش. ولأن الملك كان محمياً بحراسة مشددة وسحر ملكي قوي، استعانت الملكة بـ مرب سحري من بيت الحياة.

قام الساحر بتهريب كتاب سحري سري من المعبد، وصنع دمي من الشمع تمثل حراس الملك، وتلا عليها تعاويذ لشل حركتهم وإصابتهم بالعمى المؤقت. ورغم أن المؤامرة نجحت جزئياً وتم ذبح الملك، إلا أنه تم القبض على المتآمرين. الصدمة في المحكمة أن العقوبة لم تكن الشنق أو قطع الرأس؛ بل حُكم على الساحر بالانتحار فوراً بجرعة سم، وأُحرقت الدمى والكتب السحرية تماماً لمنع انتشار الطاقة الملوثة في طيبة.

أجساد بلا ملامح (قسوة العدالة الجنائية والتشويه الجسدي)

لم تكن هيبة الفرعون قائمة على قدسيته الدينية فحسب، بل على قبضة قانونية جنائية صارمة تضرب بلا رحمة كل من يجروء على هز استقرار العرش. في مصر القديمة، لم تكن السجون مكاناً لقضاء العقوبات، بل كانت مجرد غرف احتجاز مؤقتة لحين صدور الحكم، وعندما يتعلق الأمر بالخيانة العظمى أو التآمر على حياة الملك، كانت العدالة الفرعونية تتحول إلى أداة مرعبة للتشويه الجسدي.

في وثائق المحاكمة الشهيرة المدونة على بردية تورين القضائية، والتي أرخت كواليس مؤامرة الحريم لاغتيال الملك رمسيس الثالث، تظهر القسوة الحقيقية لرموز القانون. فبعد أن تم القبض على المتآمرين من الضباط

الخونة، ورجال البلاط الملكي، والأطباء الذين هربوا السموم والمخدرات لصالح الملكة المتآمرة تيا، لم تكتفِ المحكمة بإصدار أحكام الإعدام.

أمر القضاة بتنفيذ عقوبة التشويه الجسدي العلني بحق كبار الموظفين والضباط الذين ثبت علمهم بالمؤامرة وسكوتهم عنها. تم كحل أعين بعضهم بأسياخ الحديد الساخنة حتى أصيبوا بالعمى، بينما قُطعت أناف وآذان الآخرين بمشترط حاد في ساحة القصر. لم يكن الهدف من قطع الأنف والأذن مجرد إلحاق الألم، بل كان عقاباً نفسياً وفلسفياً مرعباً؛ فالمذنب يُحكم عليه بأن يعيش كـ مومياء حية مشوهة، يمشي بين الناس في الشوارع بوجه بلا ملامح، يحمل عاره منقوشاً على جسده طوال حياته ليكون عبرة متحركة تطارد عيون كل من تسول له نفسه المساس بالتاج الملكي.

التمائم الحية شفرة العقد السحرية

كانت النساء والأطفال في الشارع الفرعوني يرتدون حبالاً من الكتان أو الصوف تحتوي على عقد دقيقة (Knots). السحر هنا لم يكن في الحبل نفسه، بل في أنفاس الساحر. كان الساحر يعقد العقدة ويتلو تعويذة معينة، ثم ينفث (ينفخ) فيها من روحه لحبس التعويذة داخل العقدة.

كانوا يعتقدون أن كل عقدة تمثل حظراً أو حصناً يمنع مرضاً معيناً أو يحبس شيطناً يحاول التسلل لجسد الطفل. وكان حل العقدة يعني إطلاق السحر أو إفساده، لذا كان الحفاظ على سلامة العقد أمراً مقدساً تعيش به العائلات يومياً. هذه التفاصيل حقيقية وموثقة ببرديات وقضايا تاريخية (مثل بردية تورين) لذا نرى أن السحر عند الفراعنة لم يكن مجرد خيالات، بل كان سلاحاً سياسياً، وحربياً، ونظماً أمنياً معقداً يعيشون تحته يومياً.

مصر الرومانية (حين أصبح الفرعون إمبراطوراً)

في سنة ٣٠ ق.م، بعد وفاة كليوباترا السابعة وانتهاء حكم بطليموس الخامس عشر قيصرين، دخلت مصر مرحلة جديدة. لم تعد مملكة مستقلة، بل أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية.

لكن المفارقة أن روما لم تدخل مصر فتزيل العالم القديم وتبني عالماً جديداً مكانه. على العكس، أبقت كثيراً من مؤسساته، لأنها كانت تدرك أن مصر لم تكن مجرد أرض واسعة، بل دولة ذات نظام زراعي وثروة هائلة ومؤسسات دينية عريقة.

أصبحت مصر ولاية رومانية ذات وضع خاص، وكان يحكمها والٍ يعينه الإمبراطور. ولم يكن مجلس الشيوخ الروماني هو الذي يديرها كما كان يحدث في بعض الولايات الأخرى، لأن مصر كانت مهمة جداً بالنسبة إلى الإمبراطور، ولأن السيطرة عليها تعني السيطرة على جزء أساسي من إمدادات الحبوب. وكانت الإسكندرية لا تزال مدينة ضخمة متعددة الثقافات، يعيش فيها المصريون واليونانيون والرومان واليهود وغيرهم. أما في الريف، فاستمرت القرى والحقول والمعابد والنظم المحلية في الحياة. وهنا تظهر إحدى أغرب صور الاستمرار المصري الإمبراطور الروماني نفسه يمكن أن يظهر على جدران المعبد بملابس الفرعون.

ففي المعابد المصرية، صُوِّر أباطرة روما وهم يقدمون القرابين للآلهة المصرية، ويرتدون الرموز الملكية التقليدية، ويحملون الألقاب التي تجعلهم، في اللغة الدينية للمعبد، استمراراً للملك المصري. لم يكن ذلك يعني أن الإمبراطور الروماني كان يحكم مصر بالطريقة نفسها التي حكم بها رمسيس الثاني قبل أكثر من ألف عام، وإنما كان جزءاً من لغة الشرعية الدينية

المصرية. فالمعبد لم يكن قد توقف عن فهم العالم بلغته الخاصة. وهكذا يمكن أن تجد على جدار مصري صورة إمبراطور روماني، بينما يظهر أمامه آمون أو إيزيس أو حورس، وكأن الزمن نفسه قد انحنى قليلاً كي يسمح للعالم القديم بالبقاء.

مصر التي أطعمت روما

كانت الزراعة لا تزال قلب الاقتصاد. النيل يفيض، والأرض تزرع، والحبوب تجمع وتخزن، ثم تنقل عبر شبكة من القنوات والموانئ إلى الإسكندرية، ومنها يمكن أن تصل إلى أجزاء أخرى من الإمبراطورية. ولهذا أصبحت مصر واحدة من أهم مصادر الحبوب لروما. لكن الحياة اليومية لم تكن حياة رخاء للجميع. فقد فرض النظام الروماني الضرائب، وكان الفلاحون والمنتجون والحرفيون يعيشون داخل منظومة اقتصادية وإدارية شديدة التنظيم.

وتكشف الوثائق المكتوبة على البردي شيئاً لا تستطيع المعابد وحدها أن تخبرنا به عقود، إيصالات، طلبات، شكاوى، معاملات، ضرائب، رسائل عائلية، سجلات زراعية، وأوراق تتعلق بالعمل والملكية.

وبفضل هذه البرديات نستطيع أن نرى مصر الرومانية لا باعتبارها مجرد عصر أباطرة، بل باعتبارها مجتمعاً يعيش فيه أناس عاديون فلاح يزرع، تاجر يبيع، جندي يخدم، امرأة تدير شأناً عائلياً، وكاتب يسجل ما يحدث.

وكانت اللغة نفسها تكشف هذا التنوع. فقد استُخدمت اليونانية على نطاق واسع في الإدارة والحياة المدنية، إلى جانب المصرية بأشكالها المتطورة، ثم ظهرت لاحقاً القبطية، بينما بقيت اللاتينية حاضرة في الإدارة والجيش والسلطة الرومانية.

المعابد التي رفضت أن تموت

لم تختفِ الديانة المصرية مع سقوط البطالمة. استمرت عبادة إيزيس وأوزير وحورس وآمون وحتحور وغيرها، واستمرت المعابد في استقبال الكهنة والقرايين والطقوس. وبُنيت معابد أو أُضيفت إليها أجزاء في العصرين البطلمي والروماني، وبعضها ظل يحمل الفن والرموز المصرية القديمة حتى القرون الأولى للميلاد. في دندرة، وفيلة، وإدفو، وكوم أمبو وغيرها، نستطيع أن نرى مرحلة متأخرة جدًا من الفن والكتابة المصرية.

وهنا تكمن أهمية هذه المعابد إنها لا تمثل مصر في أوج قوتها فقط، بل تمثل قدرتها على الاستمرار بعد أن تغيرت الإمبراطوريات من حولها كانت مصر قد عرفت ملوكًا محليين، وفرسًا، ومقدونيين، وبطالمة، ثم الرومان؛ لكن جدران المعابد استمرت في الحديث باللغة الدينية المصرية. غير أن شيئًا جديدًا كان يقترب. لم يكن جيشًا قادمًا من الصحراء هذه المرة. كان دينًا جديدًا.

المسيحية (حين دخلت مصر مرحلة أخرى)

وصلت المسيحية إلى مصر في القرن الأول الميلادي، وترتبط التقاليد المسيحية باسم مرقس الإنجيلي الذي يُنسب إليه تأسيس الجماعة المسيحية في الإسكندرية. لكن التفاصيل المبكرة لانتشار المسيحية ليست كلها قابلة لإعادة البناء بالدرجة نفسها من اليقين. ما نعرفه بوضوح هو أن الإسكندرية أصبحت في القرون التالية واحدة من أهم مراكز الفكر المسيحي في العالم القديم. وهنا بدأت مصر تنقسم دينيًا بصورة لم تعرفها منذ قرون طويلة. في البداية لم تختفِ الآلهة المصرية القديمة. كان هناك عالم جديد ينمو بجانب العالم القديم. ثم بدأت المسيحية بالانتشار في المدن والقرى، وظهرت

جماعات وكنائس ومفكرون ورجال دين، وأصبحت مصر واحدة من أهم البيئات التي تطورت فيها الحياة الرهبانية. لكن الطريق لم يكن هادئاً دائماً.

تعرض المسيحيون في الإمبراطورية الرومانية لاضطهادات في فترات مختلفة، وكان اضطهاد عهد الإمبراطور دقلديانوس في أوائل القرن الرابع من أشهرها. وفي الذاكرة القبطية أصبح عام ٢٨٤م، وهو عام اعتلاء دقلديانوس العرش، بداية عصر الشهداء ومن هنا ظهرت مفارقة أخرى السلطة التي كانت قد استخدمت المعابد المصرية قروناً لتأكيد النظام الملكي، أصبحت في مرحلة لاحقة جزءاً من عالم إمبراطوري تتغير فيه العقيدة الرسمية نفسها. ثم جاء التحول الأكبر. من دين مضطهد إلى دين إمبراطوري

في القرن الرابع، تغير موقف الدولة الرومانية من المسيحية. أصدر قسطنطين مرسوم ميلانو سنة ٣١٣م، الذي منح المسيحيين قدراً كبيراً من الحرية الدينية، ثم أخذت المسيحية تزداد قوة داخل الإمبراطورية. وبحلول أواخر القرن الرابع، في عهد ثيودوسيوس الأول، أصبحت المسيحية النيقية مرتبطة بالدولة الإمبراطورية بصورة أقوى، وبدأت الممارسات الوثنية القديمة تتعرض لضغوط متزايدة. وفي مصر كان الصراع أكثر تعقيداً؛ لأن الوثنية لم تكن مجرد فكرة مجردة، بل كانت مرتبطة بمعابد وأراضٍ وكهنة وطقوس واقتصاد محلي وهوية ثقافية عمرها آلاف السنين. ومع مرور الوقت أغلقت معابد، وتوقفت طقوس، وتحولت بعض الأبنية الدينية أو أعيد استخدامها. لكن لم يحدث كل ذلك في يوم واحد. فالمعبد المصري لم يختفٍ لحظة إعلان دين جديد، كما أن المصريين لم يتخلوا جميعاً عن معتقداتهم في اللحظة نفسها. كان التحول تدريجياً، وغير متساوٍ من منطقة إلى أخرى. وهنا نصل إلى واحدة من أكثر اللحظات حزناً وجمالاً في تاريخ مصر القديمة.

اللغة التي قاومت الزمن

الهيروغليفية لم تكن مجرد رسومات جميلة على جدران المعابد. كانت نظام كتابة كاملاً، حمل أسماء الملوك وصلوات الكهنة والنصوص الدينية والطقوس والأساطير والتسجيلات الرسمية عبر آلاف السنين. لكن مع تغير المجتمع واللغة والدين، بدأت الهيروغليفية تفقد وظيفتها اليومية.

ظهرت الكتابة الديموطيقية، ثم القبطية التي استخدمت الحروف اليونانية مع علامات إضافية لتمثيل أصوات مصرية. وهكذا لم تختفِ اللغة المصرية فجأة. بل تغير شكلها. ويمكن النظر إلى القبطية بوصفها المرحلة الأخيرة المعروفة في التطور الطويل للغة المصرية القديمة، لا لغة أجنبية حلت محلها ببساطة. أما الهيروغليفية نفسها، فقد أصبحت شيئاً يعرفه عدد قليل من الكهنة والكتبة المرتبطين بالتقاليد القديمة. ثم بقيت على جدران المعابد حتى بعد أن أصبح العالم الذي أنتجها يتغير بسرعة.

آخر الكلمات

في معبد فيلة، في أقصى جنوب مصر، توجد واحدة من أشهر النقوش الهيروغليفية المتأخرة. يؤرخ عادة إلى سنة ٣٩٤م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، ويرتبط بالمرحلة الأخيرة المعروفة لاستخدام الهيروغليفية المصرية. وهنا يجب أن ننتبه إلى أمر بالغ الأهمية ٣٩٤م ليست نهاية الحضارة المصرية، وليست نهاية اللغة المصرية، وليست حتى نهاية كل أشكال الكتابة المصرية. إنها تمثل نهاية معروفة للكتابة الهيروغليفية في سجل النقوش. أما المصرية نفسها، فقد استمرت بالقبطية. والناس الذين عاشوا في مصر بعد ذلك لم يصبحوا شعباً آخر فجأة. كانوا

أحفاد سكان عاشوا على هذه الأرض منذ أجيال طويلة، لكن دينهم ولغتهم وطرق كتابتهم ومؤسساتهم كانت تتغير. ولهذا فإن نهاية الهيروغليفية ليست قصة اختفاء شعب. إنها قصة تغير عالم كامل.

قاموس الشارع الفرعوني (المشاعر والعبارات اليومية)

هذه مصطلحات مترجمة مباشرة من أوراق البردي:

أنا أحبك (للأنثى) Mer.i twn مر تعني الحب، وكانت تُكتب برمز الفأس لأن الحب عند الفراعنة يرتبط بعزق الأرض وبذر الحياة.

الزوجة الحبيبة Hemet merwt اللقب الرسمي المفضل الذي كان يضعه الملوك لزوجاتهم على الجدران.

ابن الشمس Sa-Ra اللقب الرسمي للفرعون لإثبات شرعيته الإلهية أمام الشعب.

الحياة، الرخاء، الصحة Ankh, Udja, Seneb تُختصر ب (ع.و.س)، وهي مثل كلمة تحياتي أو حفظه الله، توضع دائماً بعد ذكر اسم الملك.

يا إلهي! lah-Uah تعبير عن الدهشة والصدمة وُجد في الرسائل المكتوبة بخط اليد بين عامة الشعب

قاعة الحق Usekhet Maat تُستخدم عند التهديد بالجوء للقضاء؛ حيث كان المواطن يقول لخصمه سنلتقي في قاعة الحق ليقضي الحاكم بيننا.

مكان الحق (المقبرة) Set Maat الاسم السري والمهيّب الذي كان يطلقه عمال دير المدينة على وادي الملوك أثناء حفره.

كِمَتِ مصر أو الأرض السوداء - تاوي الأرضان

نِحِ الخلود المتجدد - دِجَتِ الخلود الثابت

عَنخ الحياة - دِجَدِ الثبات والاستمرار - آخَتِ الأفق

من الكهنة إلى الرهبان

في الوقت الذي كانت فيه المعابد القديمة تتراجع، كانت مصر تمنح العالم المسيحي شيئاً جديداً تماماً الرهبنة.

في صحارى مصر عاش رجال ونساء اختاروا حياة الزهد والابتعاد عن المدن. ارتبطت البدايات بأسماء مثل أنطونيوس الكبير وباخوميوس، وتطورت أشكال متعددة من الحياة الرهبانية.

الصحراء التي كانت منذ آلاف السنين فضاء المقابر والآلهة والرحلة إلى العالم الآخر، أصبحت الآن فضاءً للرهبان والصلاة والعزلة. وهذه صورة تستحق أن نتوقف عندها المكان نفسه بقي، لكن معنى المكان تغير.

الصحراء التي حملت قبور الملوك حملت بعد ذلك خلايا الرهبان. والأرض التي شهدت معابد حورس وإيزيس وأوزير شهدت ظهور الأديرة والكنائس. أما اللغة المصرية، فلم تمت مع توقف الهيروغليفية؛ بل واصلت حياتها في نصوص قبطية مسيحية. لكن مصر لم تتوقف عن كونها مصر حتى في العصر الروماني المتأخر، ثم البيزنطي، بقيت آثار الماضي حاضرة في كل مكان. المعابد بقيت الأهرام بقيت أبو الهول بقي. أسماء المدن القديمة بقيت في الذاكرة الزراعية ظلت مرتبطة بالنيل واللغة المصرية استمرت في شكل جديد بل إن بعض التقاليد والعادات والصور الرمزية القديمة لم تختف فوراً،

وكانت القبور أرشيفاً للحضارة
كواليس وخفايا وأسرار
وإنما تغيرت معانيها أو أعيد تفسيرها. وهذا يجعل نهاية مصر القديمة أصعب
بكثير من وضع تاريخ واحد على الخط الزمني.

فهل انتهت سنة ٣٠ ق.م عندما ماتت كليوباترا؟ لا.

هل انتهت سنة ٣٩٤ م عندما اختفت آخر هيروغليفية معروفة؟ ليس تمامًا.
هل انتهت عندما أغلقت آخر المعابد؟ حتى هذا لا يعني أن كل ما هو مصري
قد اختفى في اللحظة نفسها. الحضارات لا تموت كأنسان يطفئ أنفاسه
الأخيرة. إنها تتغير طبقة فوق طبقة لغة فوق لغة إلهاً بعد إله مدينة فوق
مدينة وحتى عندما اختفت آخر يد تكتب الهيروغليفية، بقيت آثار آلاف السنين
تحت الشمس المصرية ثم جاء زمن آخر لكن قبل أن تغادر مصر القديمة، بقي
سؤال واحد كيف استطاعت حضارة أن تعيش أكثر من ثلاثة آلاف عام، وأن
تتغير ملوكها وأديانها ولغاتها وعواصمها، بينما ظل المصريون يعودون دائماً
إلى النيل وإلى الأرض وإلى فكرة النظام؟

ربما لأن مصر القديمة لم تكن مجرد سلالة ملوك. كانت طريقة كاملة في
رؤية العالم ولهذا، عندما سقط آخر ملوكها، لم تسقط مصر معه. لقد بقيت في
الحجر، وفي اللغة، وفي الأسطورة، وفي أسماء المدن، وفي المعابد، وفي
المقابر، وفي الذاكرة. وكان آخر فرعون قد مات منذ قرون، لكن مصر لم
تنته.

قصة المخطوطات المخفية (اكتشاف نجع حمادي ١٩٤٥)

في ديسمبر عام ١٩٤٥، وفي مغارات جبل الطارف بالقرب من مدينة نجع
حمادي في صعيد مصر، كان فلاح مصري يدعى محمد علي السمان يبحث
عن سماد طبيعي (سباخ)، وعثر بالصدفة على جرة فخارية ضخمة مغلقة

ومختومة بالشمع. الصدمة حين كسر الجرة، لم يجد ذهباً، بل وجد ١٣ بردية مجلدة بالجلد تحتوي على نصوص مفقودة منذ قرابة ١٦٠٠ عام!

لماذا حُبِئت؟ هذه المخطوطات تبين أنها تخص المسيحيين الغنوصيين (العارفين). والغنوصية هي حركة روحية مسيحية مبكرة كانت تؤمن أن الوصول إلى الله يكون عبر المعرفة الروحية الداخلية السرية وليس عبر الطقوس الخارجية. وحين اعتبرت الكنيسة الرسمية في القرن الرابع هذه الأفكار هرطقة وأمرت بحرق كتبهم، قام الرهبان بجمع هذه الأنجيل السرية ووضعوها في جرة فخارية ودفنوها في باطن الجبل لتنجو من النسيان والتدمير. كانت تحتوي على نصوص أحدثت هزة في العالم مثل إنجيل توما وإنجيل الحقيقة وإنجيل مريم المجدلية، وهي مكتوبة باللغة القبطية القديمة.

الرموز الروحية الغامضة (الشفرات التاريخية العميقة)

عندما دخلت المسيحية إلى مصر، لم يمسح الأقباط تاريخهم الفرعوني، بل أخذوا الرموز الوثنية القديمة وحوروها سحرياً وروحياً لتخدم العقيدة الجديدة. هذا التداخل صنع شفرات بصرية مذهلة

١. مفتاح الحياة الفرعوني (العنخ) يتحول إلى الصليب القبطي

أعظم شفرة دمج؛ فالفراعنة كانوا يمسكون بمفتاح الحياة (العنخ) كرمز للخلود والولادة الثانية. الأقباط الأوائل وجدوا أن شكل العنخ يشبه الصليب تماماً، فأخذوه وتبنوه كصليب مسيحي يُدعى الصليب ذو العروة (Crux Ansata). هذه الصدمة البصرية تعني أن الفراعنة رسموا الصليب قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين كرمز للحياة الأبدية!

٢. شفرة الألف والياء (Alpha & Omega) مع الرموز المصرية

في المنسوجات والآثار القبطية القديمة، كانوا يشفرون اسم المسيح برسم الحرفين اليونانيين (A و Ω) وبينهما طائر الفينيق أو زهرة اللوتس الفرعونية؛ كرمز للنهاية والبدائية، وبعث الروح من جديد بعد الموت.

٣. أيقونة إيزيس ترضع حورس تتحول إلى العذراء والطفل

في الفن القبطي المبكر جداً، كان الرسامون يتأثرون باللاوعي الفرعوني المخزن في عقولهم. الجداريات الأولى للسيدة العذراء وهي ترضع الطفل يسوع كانت تطابق تماماً في الحركة والزاوية والقدسية البصرية لوحات الإلهة إيزيس وهي ترضع طفلها الإلهي حورس لحمايته من الشر، وهي شفرة بصرية انتقلت من المعابد الوثنية إلى الكنائس القديمة بسلسلة مذهلة.

الأديرة الفرعونية المخفية وصدمة تمازج الأديان

الرهبان والأقباط الأوائل، فراراً من بطش واضطهاد الرومان، لجأوا إلى المقابر الفرعونية القديمة المحفورة في عمق الجبال وسكنوا داخلها!

حور الرهبان غرف التحنيط القديمة ومقابر الفراعنة الودية إلى كنائس وصوامع للعبادة؛ فكان الراهب يصلي، ويرسم صورة السيد العذراء والمسيح بالطباشير، مباشرة فوق نقوش الآلهة الفرعونية القديمة (مثل أوزيريس وإيزيس)، مما صنع تمازجاً جيولوجياً وروحياً مرعباً بين باطن الأرض المصرية وعقائدها المتتالية.

العلم الذي خرج من مصر

ارتبطت مصر منذ القدم بالطب والفلك والحساب والهندسة وإدارة مياه النيل. لكن في العصرين البطلمي والروماني أصبحت الإسكندرية مركزاً علمياً

عالمياً. درس فيها علماء مثل إقليدس، الذي ارتبط اسمه بأهم مؤلفات الهندسة في العالم القديم، وإراتوستينس الذي قاس محيط الأرض بطريقة مذهشة بالنسبة إلى عصره، وغيرهما من العلماء الذين عملوا في بيئة علمية امتزجت فيها المعارف المصرية واليونانية.

ولا يصح أن ننسب كل معرفة إلى مصر وحدها أو إلى اليونان وحدها. فالمعرفة القديمة كانت تنتقل بين الحضارات.

المصريون امتلكوا خبرات عملية عميقة في الطب والحساب والفلك والهندسة، واليونانيون طوروا مدارس فلسفية ورياضية ونظرية، ثم جاءت الإسكندرية لتصبح واحدة من البيئات التي التقت فيها هذه التقاليد. وهكذا، حتى في المرحلة التي كانت فيها مصر تفقد استقلالها السياسي، كانت لا تزال تنتج معرفة تؤثر في العالم من حولها.

مصر والموت مرة أخرى

ومن الغريب أن فكرة الموت التي رافقتنا منذ البداية لم تختفِ أيضاً لكنها تغيرت. المصري القديم بنى المقبرة باعتبارها بيتاً للميت، وكتب النصوص ليحمله في العالم الآخر، وحافظ على الجسد، وقدم القرابين.

ثم جاءت المسيحية برؤية مختلفة للموت والقيامة والخلص. ومع ذلك بقيت فكرة المحافظة على جسد الميت واحترامه حاضرة بقوة في المجتمع المصري

وتوجد مقابر مصرية من العصور المسيحية تكشف استمرار بعض العادات القديمة إلى جانب الممارسات المسيحية الجديدة. لم يعد الميت يحتاج إلى عبور بوابات أوزير أو الحصول على حماية أنوبيس بالطريقة القديمة، لكن

الموت ظل حدثاً دينياً واجتماعياً بالغ الأهمية. وكان المصريين، رغم تغير العقيدة، لم يفقدوا تلك العلاقة العميقة مع فكرة الموت والخلود.

آخر المعابد

كان معبد فيلة من آخر الأماكن التي بقيت فيها الطقوس المصرية القديمة حية فترة طويلة. وكان موقعه في الجنوب، قرب الشلال الأول، بعيداً عن مراكز التحول الكبرى في الشمال. ارتبط المعبد بصورة خاصة بعبادة إيزيس، واستمرت تقاليدته حتى أواخر العصر الروماني.

لكن في النهاية جاء القرار الإمبراطوري بإغلاق المعابد التي بقيت تمارس الطقوس القديمة. ومنذ ذلك الوقت لم تعد مصر القديمة موجودة بوصفها نظاماً دينياً حياً له كهنته وطقوسه ومؤسساته.

بقيت الأبنية وبقيت النقوش وبقيت التماثيل لكن العالم الذي منحها معناها بدأ يغيب. وهنا تحديداً يمكننا أن نفهم الفرق بين الأثر والحضارة.

يمكن أن يبقى المعبد ألفي سنة بعد اختفاء آخر شخص يعرف لماذا بُني.

يمكن أن يبقى النص على الجدار بينما تختفي اللغة التي كُتِب بها. ويمكن أن يبقى تمثال الإله واقفاً في مكانه، بينما لا يعود أحد يقدم له القرابين وهذا هو الموت الحقيقي للحضارة القديمة ليس سقوط حجارتها، بل انقطاع النظام الذي كان يمنح تلك الحجارة معناها. وماذا حدث للهيروغليفية؟

ظلت الكتابات المصرية على الجدران أمام الناس قرونًا طويلة لكن أحدًا لم يعد قادرًا على قراءتها قراءة صحيحة. بالنسبة إلى أهل العصور اللاحقة، تحولت الرموز إلى أسرار، طائر، عين، ثعبان، رجل جالس، شمس، ماء.

أشكال تبدو جميلة، لكنها لم تعد تقول لهم ما كانت تقوله للكهنة والكاتب المصري. وهكذا أصبحت مصر القديمة نفسها لغزاً.

الأهرامات موجودة، لكن الذين بنوها رحلوا.

المقابر موجودة، لكن أصحابها صمتوا.

النصوص موجودة، لكن اللغة أصبحت مجهولة.

والآلهة ما زالت منحوتة على الجدران، لكن أسماءها لم تعد مفهومة.

وظل هذا الصمت قرونًا طويلة حتى جاء حجر صغير غير القصة كلها.

حجر رشيد (حين بدأت مصر القديمة تتكلم من جديد)

في سنة ١٧٩٩، أثناء الحملة الفرنسية على مصر، عثر جنود قرب مدينة رشيد على حجر من البازلت يحمل نصًا مكتوبًا بثلاثة أنظمة كتابة الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية. وكان النص نفسه تقريبًا مكرراً باللغات والكتابات المختلفة.

لم يكن الحجر مكتوباً في عصر الفراعنة، بل في العصر البطلمي، وتحديدًا في عهد بطليموس الخامس لكن أهميته كانت هائلة. فاللغة اليونانية كانت معروفة للباحثين، وبمقارنتها بالنصين الآخرين أصبح من الممكن البدء في فك النظام الهيروغليفى. وكأن العالم على وشك أن يسمع مصر القديمة من جديد.

شامبليون

جاء الفرنسي جان-فرانسوا شامبليون، وانشغل لسنوات بمحاولة فهم الكتابة المصرية. وكانت إحدى المفاتيح المهمة أسماء الملوك، لأن أسماء مثل بطليموس وكليوباترا يمكن مقارنتها بما هو معروف من النص اليوناني. لكن اكتشافه لم يكن مجرد قراءة مجموعة رموز كان عليه أن يفهم طبيعة النظام نفسه أن بعض العلامات تمثل أصواتاً، وبعضها يحدد المعنى، وبعضها يؤدي وظائف أخرى داخل الكلمة.

وفي سنة ١٨٢٢ أعلن شامبليون نتائج مهمة في فك رموز الهيروغليفية. وفجأة لم تعد جدران مصر صامتة بدأت الأسماء تظهر.

رمسيس، تحتمس، أمنحتب، كليوباترا. وبدأت مصر القديمة تستعيد صوتها. ليس من خلال أسطورة اخترعها العالم الحديث، بل من خلال كلمات كتبها المصريون أنفسهم قبل آلاف السنين.

مصر التي عادت من الحجر

ومنذ القرن التاسع عشر بدأت مرحلة جديدة الباحثون ينقبون.

المتاحف تمتلئ بالآثار، المقابر تُفتح، النصوص تُقرأ.

والأسماء التي كانت مجهولة تعود إلى التاريخ.

لكن هذه العودة لم تكن كاملة ولا بسيطة.

فالكثير من الآثار نُقل خارج مصر، وبعضها تعرض للنهب أو التدمير، وبعض القصص القديمة أعيد تفسيرها وفق تصورات حديثة لا تشبه بالضرورة ما كان المصريون أنفسهم يؤمنون به.

ولهذا فإن دراسة مصر القديمة لا تعني فقط اكتشاف ما بقي. بل تعني أيضاً أن نسأل دائماً من كتب هذه القصة؟ هل هو الكاهن؟ هل هو الملك؟

هل هو المؤرخ اليوناني؟ هل هم الرومان؟ هل هو عالم آثار حديث؟

أم أن الدليل نفسه هو الذي يتحدث؟

وهذه الأسئلة مهمة جداً، لأنها تمنعنا من تحويل مصر القديمة إلى مجموعة من الأساطير الجميلة فقط.

النهاية التي ليست نهاية

بدأنا رحلتنا في الجزء الأول (ملح و بصل وتيجان) من زمن لم تكن فيه مصر دولة بعد من الإنسان الذي عاش على ضفاف النيل، وصاد السمك، وزرع الأرض، ودفن موتاه، وصنع فخاره. ثم ظهرت القرى ثم نقادة ونخن ثم الملوك ثم الكتابة ثم الدولة ثم الأهرامات ثم المعابد ثم الإمبراطوريات ثم الحروب والمعاهدات ثم كليوباترا ثم روما ثم المسيحية ثم توقفت الهيروغليفية لكن النيل بقي والأرض بقيت والناس بقوا واللغة المصرية لم تختف في يوم واحد، بل تحولت عبر القرون حتى وصلت إلى القبطية.

أما مصر القديمة بوصفها عالماً دينياً وسياسياً وكتابياً متكاملًا، فقد انتهت تدريجياً ولعل أجمل ما في قصتها أن نهايتها لم تكن لحظة سقوط مدوية.

لم يكن هناك باب ضخم أُغلق، ثم اختفت مصر بل كان الأمر أشبه بمصباح يخفت ببطء. تقل الطقوس، يقل عدد الكهنة، تتوقف الكتابة القديمة، تغلق المعابد، تتغير اللغة، تتغير أسماء الآلهة.

وتأتي أجيال جديدة لا تعرف تمامًا ما كان يعنيه ذلك الرمز المنحوت على الجدار ثم يبقى الحجر وحده لكن الحجر لا ينسى.

وبعد أكثر من ألف عام من الصمت، عاد الإنسان ليقراه.

فعرف أن وراء تلك العلامات أناسًا كانوا يحبون ويخافون ويحلمون بالموت والخلود، ويزرعون الأرض، ويبنون المدن، ويختلفون ويتحالفون، ويكتبون أسماءهم كي لا يختفوا. وربما لهذا السبب تحديدًا كتب المصري القديم اسمه على الحجر كان يعرف أن الجسد سيرحل وأن المعبد قد يسقط وأن الملوك يتغيرون لكنه آمن بأن الاسم إذا بقي، فإن شيئًا من الإنسان يبقى معه وقد بقي الاسم وبقيت مصر.

مصر في ذاكرة العالم

لكن مصر لم تبقى حاضرة داخل حدودها فقط. منذ العصور القديمة، كان اسم مصر معروفًا لدى جيرانها، وكتب عنها اليونانيون والرومان، ثم أصبحت الأهرام والمومياوات والمعابد جزءًا من صورة مصر في المخيلة العالمية. ومع ذلك، فإن الصورة التي وصلت إلى العصور الحديثة لم تكن دائمًا صورة المصريين عن أنفسهم. كان هناك فرق بين مصر التي كتبها المصريون، ومصر التي وصفها الآخرون. المؤرخ اليوناني هيرودوت، مثلاً، ترك لنا معلومات ثمينة عن مصر، لكنه كتب من منظور رجل يوناني زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد والكتاب الرومان كتبوا عن المصريين من داخل عالم مختلف ثم جاء الرحالة في العصور اللاحقة ثم المستشرقون وعلماء الآثار ثم المتاحف ثم السينما والروايات.

وبدأت تتشكل صورة حديثة لمصر القديمة، امتزج فيها العلم أحياناً بالخيال. ولهذا فإن مصر التي نعرفها اليوم ليست دائماً مصر التي عاشها المصري القديم وهنا يجب أن نكون حذرين فالمومياء ليست مجرد جثة غامضة. والهرم ليس مجرد لغز والهيروغليفية ليست شيفرة سحرية. والفراعنة لم يكونوا جميعاً ملوكاً متشابهين كل واحد منهم عاش في زمن مختلف، داخل ظروف سياسية واقتصادية ودينية مختلفة. ومصر التي امتدت آلاف السنين لم تكن حضارة جامدة كانت تتغير باستمرار. لماذا بقيت الأهرام؟ هناك شيء آخر يستحق التأمل.

من بين آلاف المدن والقرى والمنازل التي بناها المصريون، بقيت الأهرام أكثر من غيرها والسبب ليس أنها كانت أهم شيء في حياة كل المصريين بل لأن الحجر حفظها.

أما بيت الفلاح المصنوع من الطوب اللبن فقد يختفي مع المطر والزمن، بينما يبقى الهرم لأن مادته وحجمه وطريقة بنائه جعلته أكثر قدرة على مقاومة القرون ولهذا يجب ألا نسمح للآثار الباقية أن تخذعنا.

فمصر القديمة لم تكن كلها أهراماً كان معظم المصريين يعيشون في بيوت بسيطة، يعملون في الحقول والورش والموانئ والمخازن، ويذهبون إلى الأسواق، ويتزوجون وينجبون ويمرضون ويختلفون ويضحكون ويحزنون.

لكن هؤلاء الناس تركوا أثراً أقل بقاءً ولهذا تبدو لنا مصر القديمة أحياناً وكأنها حضارة ملوك ومعابد ومقابر فقط بينما كانت في الحقيقة حضارة ملايين البشر الذين عاشوا حياتهم اليومية بعيداً عن الحجر الضخم.

في النهاية، ربما لا ينبغي أن تكون قصة مصر القديمة قصة خوفو ورمسيس وحشيسوت وكليوباترا وحدهم. فهناك أيضاً ذلك الإنسان الذي لم يصلنا اسمه امرأة نسجت ثوباً ورجل حمل حجراً وفلاح زرع القمح وخباز صنع الخبز وبحار عبر النيل وكاتب سجل كمية من الحبوب وطفل مات صغيراً ودفنته أسرته وأم وضعت تميمة قرب طفلها خوفاً عليه وعامل كتب رسالة يطلب فيها حصة من الطعام وكاهن وقف أمام تمثال إلهه وردد الكلمات نفسها التي حفظها أسلافه.

هؤلاء هم الذين صنعوا الحضارة بقدر ما صنعها الملوك.

وإذا كان الهرم يحمل اسم الملك، فإن الأرض التي بُني عليها تحمل آثار آلاف الأشخاص الذين عملوا حوله ومن دونهم لم يكن الهرم ليقف.

ما الذي جعل مصر تستمر كل هذا الوقت؟ ربما لا توجد إجابة واحدة.

لكننا نستطيع أن نرى مجموعة عوامل اجتمعت بصورة نادرة

النيل منح مصر مورداً أساسياً للزراعة والنقل.

والصحراء وفرت حدوداً طبيعية، وإن لم تمنع الاتصال بالعالم.

والدولة طورت جهازاً إدارياً قادراً على جمع الموارد وتوزيعها.

والكتابة حفظت المعرفة والطقوس والسجلات.

والدين منح العالم المصري فكرة قوية عن النظام والتجدد.

والتقاليد كانت قادرة على التكيف؛ فالإله الواحد يمكن أن تتغير صفاته،

والطقس يمكن أن يتطور، والملك يمكن أن يتغير، وحتى العاصمة يمكن أن

تنتقل، بينما تبقى فكرة مصر نفسها حاضرة. وهذا مهم جداً.

مصر القديمة لم تستمر لأنها لم تتغير، بل ربما لأنها كانت قادرة على التغير من دون أن تفقد كل صلتها بماضيها.

حتى عندما جاء حكام من خارجها، من الفرس إلى المقدونيين ثم الرومان، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التعامل مع تقاليدها ومؤسساتها ورموزها.

ويبقى السؤال الأخير الذي بدأ معنا منذ أول صفحة

ماذا كان يريد المصري القديم أن يبقى منه بعد موته؟

كان يريد أن يبقى جسده فحنّطه.

ويريد أن يبقى اسمه فنقشه.

ويريد أن يبقى بيته في العالم الآخر فبنى المقبرة.

ويريد أن تستمر حياته فترك الطعام والقرابين والصور.

ويريد أن يستمر النظام فجعل الملك حارساً لماعت.

ثم مرت آلاف السنين ومات الملوك وسقطت الدول وتغيرت الآلهة وصمتت الهيروغليفية لكن الاسم بقي والحجر بقي والنيل بقي والأرض بقيت.

وها نحن، بعد آلاف السنين، ما زلنا نقرأ.

مصر بعد الفراعنة (حين تغيّر العالم ولم تتغير الأرض)

لم تكن مصر في القرن الرابع الميلادي أرضاً فارغة تنتظر تاريخاً جديداً. كانت ما تزال بلد النيل، والحقول، والمدن، والموانئ، والقرى التي عاش فيها أحفاد أجيال طويلة من المصريين.

لكن العالم الذي عاش فيه هؤلاء الناس لم يعد هو العالم الذي عرفناه في عصر رمسيس الثاني أو تحتمس الثالث لم يعد هناك فرعون مصري يؤدي دوره القديم أمام آمون ولم تعد المعابد مركز الحياة الدينية كما كانت والهيروغليفية أصبحت كتابة من الماضي.

ومع ذلك، بقيت مصر جزءاً أساسياً من الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، ثم من الإمبراطورية البيزنطية، وبقي النيل يؤدي وظيفته التي لم تستطع الإمبراطوريات تغييرها.

المصريون والمسيحية

مع انتشار المسيحية، ظهرت في مصر جماعات مسيحية كبيرة، وأصبحت الإسكندرية أحد أهم المراكز المسيحية والفكرية في البحر المتوسط. لكن المسيحية المصرية لم تكن مجرد نسخة من المسيحية في مكان آخر. نشأت لها تقاليدها ومدارسها ورجالها ورهبانها، وارتبطت بصورة خاصة باللغة المصرية التي تطورت إلى القبطية وهكذا حدث أمر شديد الأهمية الدين تغير، لكن اللغة المصرية استمرت. فالمصري الذي لم يعد يكتب اسم حورس بالهيروغليفية، أصبح قادراً على كتابة نص مسيحي باللغة التي انحدرت من اللغة التي تكلم بها أسلافه. إنها ليست قطيعة كاملة إنها تحول.

الإسكندرية ومشكلة العقيدة

لكن انتشار المسيحية لم يجعل مصر موحدة دينياً. على العكس، أصبحت الإسكندرية مركزاً لصراعات لاهوتية كبيرة داخل العالم المسيحي نفسه. وفي القرن الخامس، ظهر الخلاف الذي ارتبط بمجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م. تبنت الكنائس في مصر موقفاً لاهوتياً مختلفاً عن الموقف الذي أقره المجمع،

وتطورت من هنا هوية كنسية مصرية مميزة ارتبطت لاحقاً بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية وهذا الخلاف لم يكن مجرد نقاش فلسفي حول طبيعة المسيح.

كان له أيضاً بُعد سياسي واجتماعي، لأن الخلافات الدينية داخل الإمبراطورية كانت تتداخل مع السلطة والإدارة والهوية المحلية. ومع مرور الزمن أصبح الانقسام بين الكنيسة الخلقيدونية والكنيسة المصرية غير الخلقيدونية جزءاً مهماً من تاريخ مصر. وهنا نرى مرة أخرى شيئاً عرفتته مصر منذ آلاف السنين الدين ليس منفصلاً عن السياسة. كان هذا واضحاً في علاقة الملك بالآلهة، وفي صراع أخناتون مع مؤسسات آمون، وفي سلطة كهنة المعابد، ثم ظهر بصورة مختلفة داخل الإمبراطورية المسيحية.

الرهبان والصحراء

وفي الوقت نفسه، كانت الصحراء المصرية تتحول إلى واحدة من أهم مواطن الرهبنة في العالم ابتعد رجال ونساء عن المدن واختاروا حياة الزهد والصلاة وظهرت تجمعات رهبانية كبيرة في مناطق مثل وادي النطرون، وصحراء مصر الشرقية، وغيرها. وكان أنطونيوس الكبير وباخوميوس من الشخصيات المؤسسة لتقاليد رهبانية أثرت لاحقاً في المسيحية خارج مصر.

مصر تدخل عصرًا جديدًا

في القرن السابع الميلادي، كانت مصر لا تزال جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية. ثم وصلت الجيوش العربية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، بقيادة عمرو بن العاص، وبدأ فتح مصر سنة ٦٣٩م.

وفي سنة ٦٤١م سقطت الإسكندرية في أيدي المسلمين بعد الصراع مع البيزنطيين، وأصبحت مصر تدخل مرحلة تاريخية جديدة.

وهنا، للمرة الثانية في رحلتنا، يتغير وجه البلاد بصورة عميقة.

لقد دخل إلى بلد يحمل وراءه أكثر من ثلاثة آلاف عام من التاريخ المكتوب، وإلى مجتمع ما تزال فيه اللغة القبطية حية، والمسيحية راسخة، وآثار مصر القديمة منتشرة في المدن والقرى والصحراء.

وبدأت بعد ذلك عملية طويلة من التحول اللغوي والديني والسياسي.

من مصر الفرعونية إلى مصر التي نعرفها

احتاجت مصر قرونًا حتى تتغير لغتها السائدة. ولم تختفِ القبطية فور دخول العرب. ولم يصبح الجميع مسلمين في لحظة واحدة. ولم تختفِ المسيحية المصرية. بل استمر المجتمع في التحول تدريجيًا، واحتفظت مصر بجماعات قبطية كبيرة، واستمرت اللغة القبطية في الاستعمال الديني، بينما انتشرت العربية تدريجيًا في الحياة والإدارة والمجتمع. وهكذا انتهى فصل قديم وبدأ فصل جديد. لكن الأرض لم تتغير. النيل لم يتغير. والأهرام لم تتحرك. ومعبد فيلة لم يختفِ. والمقابر بقيت تحت الرمال.

والكتابات التي لم يعد أحد يستطيع قراءتها ظلت تنتظر.

وما الذي بقي من المصري القديم فينا؟

ربما لا نستطيع أن نقول إن المصريين المعاصرين هم المصريون القدماء أنفسهم بمعنى بسيط، لأن المجتمعات تتغير والهجرات والاختلاط والتحويلات السياسية والدينية تترك أثرها دائمًا.

لكن لا يمكن أيضًا أن نتعامل مع مصر وكأن كل عصر بدأ من الصفر.

فالأرض نفسها، ومجرى النيل، والقرى والمدن، واللغة التي تطورت عبر آلاف السنين، والآثار التي بقيت شاهدة، كلها صنعت استمرارية تاريخية حقيقية. إنها ليست استمرارية بلا تغير. بل استمرارية من خلال التغير.

وهذه ربما تكون أهم فكرة يمكن أن نخرج بها من قصة مصر كلها.

رسائل تل العمارنة (عندما نسمع صوت العالم)

هذه الرسائل، المكتوبة بالكتابة المسمارية واللغة الأكادية الدبلوماسية، جاءت من القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريباً، وعُثر عليها في أختاتون، عاصمة أختاتون. والأجمل فيها أنها لا تعطينا صورة مصر وحدها. بل تجعلنا نسمع أصوات ملوك آخرين. ملك يطلب الذهب. آخر يطلب مساعدة. حاكم مدينة يشكو من خصومه. وملك آخر يتحدث عن الزواج والتحالف.

ومن خلالها نرى أن الإمبراطورية المصرية لم تكن مجرد أرض تحت الاحتلال. كانت شبكة سياسية معقدة من المدن والملوك والحلفاء والمنافسين.

المدن أين عاش المصريون؟

الأهرام لا تمثل المدن المصرية. فالحياة الحقيقية كانت في المدن والقرى. وكانت هناك مراكز كبرى، لكل منها تاريخها ووظيفتها.

منف عاصمة قديمة ومركز سياسي وديني مهم في شمال البلاد، ارتبطت ببتاح وبمؤسسة كهنوتية وفكر ديني مميز.

هليوبوليس (مدينة رع والشمس) كان مركزها الديني بالغ الأهمية، وخرجت منها تقاليد كونية مؤثرة، خصوصاً مجموعة الآلهة التسعة المرتبطة بقصة الخلق.

طيبة (مدينة آمون) ازدهرت خصوصاً في الدولة الوسطى والحديثة، وأصبحت مركزاً سياسياً ودينياً هائلاً. شرق النيل فيها المعابد الكبرى، وغربه المقابر والمعابد الجنائزية.

أبيدوس (مدينة أوزير) كانت من أهم مراكز العبادة الجنائزية، وأصبحت مقصداً دينياً مهماً للحجاج والندور.

أخيتاتون (مدينة أخناتون) بُنيت بسرعة نسبياً في موقع جديد، لتكون مركز عبادة آتون والعائلة الملكية. ثم هُجرت بعد نهاية عصر العمارنة.

بر رعسيس (عاصمة رمسيس الثاني في الدلتا) اختيار الموقع نفسه يعكس تغيراً استراتيجياً؛ فمصر في الدولة الحديثة أصبحت أكثر ارتباطاً بالدلتا والطرق المؤدية إلى بلاد الشام.

الإسكندرية (مدينة العصر الهلنستي) لم تكن امتداداً مباشراً لمدينة فرعونية قديمة، بل كانت مدينة جديدة ذات طابع متوسطي، لكنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تاريخ مصر.

المعابد ماذا كان يحدث خلف الجدران؟

المعبد المصري لم يكن كنيسة أو مسجداً بالمعنى الحديث كان بيتاً للإله وكان في داخله تمثال يمثل حضور الإله، وتُقام حوله طقوس يومية. وفي قلب المعبد يوجد قدس الأقداس، وهو أكثر الأماكن قداسة، ولا يدخل إليه عامة الناس. كان الكهنة يؤدون طقوساً محددة إيقاظ الإله رمزياً، تطهير المكان، تقديم الطعام والشراب والملابس والعطور، ثم إعادة التمثال إلى موضعه.

ولا يعني هذا أن المصريين كانوا يعتقدون أن الحجر نفسه يأكل الطعام كما يأكل الإنسان القرابين كانت جزءاً من النظام الطقسي الذي يحافظ على العلاقة بين الإله والعالم.

وكان الملك، من الناحية الدينية، صاحب الدور الأعلى في تقديم القرابين للآلهة لكن التنفيذ اليومي كان بيد الكهنة وهنا يصبح المعبد مؤسسة ضخمة. له أراضٍ ومخازن وعمال وحرفيون وحيوانات وكهنة وكتبة وموارد. لذلك كانت قوة المعبد اقتصادية وسياسية أيضاً.

الكهنة هل كانوا طبقة واحدة؟ لا.

كان هناك تدرج وظيفي واسع داخل المؤسسات الدينية.

وكانت هناك مراتب مختلفة من الكهنة والموظفين والعاملين.

وبعض الكهنة لم يكونوا يعيشون طوال الوقت داخل المعبد.

وكانت الخدمة في بعض المؤسسات منظمة بنظام التناوب.

وفي فترات معينة أصبحت ثروة المعابد ضخمة جداً، وخاصة معابد آمون في

طيبة. وهذا أعطى المؤسسة الدينية وزناً سياسياً كبيراً. وهنا نفهم إحدى

المشكلات التي ظهرت في نهاية الدولة الحديثة

كلما ازدادت ثروة المعبد، أصبح السؤال عن حدود قوة الكاهن أكثر أهمية.

الحيوانات المقدسة

وهنا نصل إلى واحد من أكثر جوانب مصر القديمة إثارة.

لماذا كان المصريون يقدسون الحيوانات؟

الإجابة ليست ببساطة أنهم عبدوا الحيوانات.

كان الحيوان يمكن أن يكون تجسيداً أو مظهرًا أو رمزًا لقوة إلهية.

الصقر ارتبط بحورس. أبو منجل ارتبط بتحوت. القطط ارتبطت بباستت التماسيح ارتبطت بسوبك. الثور أبيس ارتبط ببتاح، ثم اكتسب علاقات أوزيرية والبقرة ارتبطت بحتحور.

ولذلك كان الحيوان جزءًا من عالم ديني معقد. وفي العصور المتأخرة ازدهرت تجارة الحيوانات المقدسة والمومياوات الحيوانية على نطاق واسع وقد اكتشف علماء الآثار ملايين المومياوات الحيوانية في بعض المواقع. لكن هذه الظاهرة المتأخرة لا ينبغي إسقاطها على كل تاريخ مصر القديم.

الموسيقى والرقص

لم تكن الموسيقى شيئًا هامشيًا كانت موجودة في الاحتفالات والطقوس والمآتم والولائم. استخدم المصريون آلات مثل القيثارات والناي والطبول والصلاصل، وخاصة المنات والسيستروم المرتبطتين ببعض الطقوس والمعبودات. وكان الرقص جزءًا من الاحتفالات والطقوس، ويمكن أن يكون له معنى ديني أو احتفالي أو ترفيهي ولم يكن المعبد مكان صمت دائم كان يمكن أن يمتلئ بالموسيقى والروائح والبخور وحركة المواكب في المناسبات الكبرى.

الأعياد (حين خرج الإله من المعبد)

من أهم المناسبات الدينية عيد الوادي الجميل في طيبة. كان تمثال آمون، ضمن موكب طقسى، ينتقل من الكرنك باتجاه البر الغربي. وهناك تتقاطع حياة

الأحياء مع عالم الموتى. وكانت الموابك فرصة للمجتمع للمشاركة في احتفال ديني لا يشبه الطقس اليومي المغلق داخل قدس الأقداس. ومن أشهر الاحتفالات أيضاً عيد الأوبت، الذي ارتبط بطيبة وآمون وتجدد الملكية. وهكذا كانت الأعياد تؤدي وظيفة دينية واجتماعية وسياسية في الوقت نفسه.

تحوت (الكتابة والمعرفة)

تحوت، الذي ظهر في هيئة أبو منجل أو رجل برأس أبي منجل، ارتبط بالكتابة والحكمة والحساب والقمر. وكان للكتابة مكانة خاصة في المجتمع المصري، ولذلك كان تحوت شخصية دينية مهمة بالنسبة إلى عالم المعرفة.

وفي التقاليد المتأخرة ارتبط اسمه بالحكمة والكتب والمعرفة السرية في المخيال اليوناني، ومنها نشأت لاحقاً صورة هرمس المثلث العظمة.

لكن هرمسية العصور اللاحقة ليست ببساطة ديانة مصرية قديمة؛ إنها نتاج تداخل مصري ويوناني وفلسفي في العصور الهلنستية والرومانية. وهذا مثال آخر على ضرورة ألا نخلط الطبقات التاريخية.

جد (العمود الذي يقف)

هناك رمز آخر هو جد يبدو كعمود له عدة خطوط أفقية في أعلاه ارتبط بالاستقرار والثبات، وبالأخص بأوزير في التقاليد اللاحقة.

وفي طقوس رفع جد كان الرمز يرتفع من وضعية إلى أخرى، في مشهد يرتبط بإعادة الاستقرار والحياة. وهنا نرى كيف يمكن لشيء بسيط جداً في الشكل أن يحمل فكرة كبرى أن يقف العالم من جديد بعد أن سقط.

واس (القوة والسيطرة)

أما واس، فيظهر كعصا طويلة ذات رأس مميز وقاعدة متشعبة ارتبط بالسلطة والقوة والسيطرة، وظهر في أيدي الآلهة والملوك.

وهكذا أصبح لدى المصري مجموعة من الرموز التي لم تكن زينة فقط عنخ تعني الحياة وجد يعني الثبات والاستقرار واس يعني القوة والسيطرة. عين حورس تعني الحماية والسلامة والريشة تعني ماعت والحق والنظام. هذه الرموز كانت جزءاً من لغة بصرية يستطيع المصري أن يقرأ بها المعنى حتى من دون جملة طويلة.

حين صار الحجر لغة

بعد أن بنى المصريون عالماً دينياً بهذا التعقيد، احتاجوا إلى طريقة تجعل هذا العالم مرئياً. وهنا نصل إلى الفن المصري.

وإذا وقفنا أمام جدار مقبرة أو معبد، قد يبدو لنا للوهلة الأولى أن الفنان المصري يرسم البشر بطريقة غريبة الرأس من الجانب العين من الأمام الصدر من الأمام الساقان من الجانب والقدم تبدو وكأنها من الجانب أيضاً. لكن هذا لم يكن لأن المصري لم يعرف كيف يرسم الإنسان. بل لأن هدف الفن لم يكن دائماً نسخ ما تراه العين في لحظة واحدة.

كان الهدف في كثير من السياقات أن يعرض أوضح صورة ممكنة لكل جزء. الرأس أفضل من الجانب العين أوضح من الأمام الصدر أوسع من الأمام.

وهكذا تُجمع أجزاء الجسد في صورة واحدة تحقق الوضوح والهوية والاستمرارية إنه ليس منظوراً واقعياً بالمعنى الذي سيظهر في مدارس الفن اللاحقة إنه نظام بصري له قواعده الخاصة.

لماذا كان الملك أكبر من الآخرين؟

في كثير من المشاهد، يكون الملك ضخماً مقارنة بالأشخاص المحيطين به والطفل قد يبدو أصغر بكثير والخادم أصغر من سيده هذا لا يعني بالضرورة أن الفنان اعتقد أن الملك كان عملاقاً إنه مقياس للمكانة.

كلما زادت أهمية الشخصية، زاد حجمها في المشهد.

ولهذا قد تظهر الملكة أصغر من الملك في مشهد، بينما يمكن أن تظهر في سياق آخر بحجم كبير إذا كان المقام يقتضي إبراز مكانتها وهذا المبدأ لا يقتصر على الملوك وحدهم.

الحجم في الفن المصري يمكن أن يكون لغة اجتماعية ودينية.

اللون لم يكن مجرد لون حتى الألوان حملت دلالات.

الأخضر ارتبط في سياقات كثيرة بالحياة والتجدد والنبات.

الأزرق ارتبط بالسماء والماء وبعض المفاهيم الإلهية.

الأحمر يمكن أن يرتبط بالقوة والصحراء والخطر أو بصفات معينة بحسب السياق.

الأسود ارتبط بخصوبة أرض النيل وبالتجدد، وليس رمزاً للموت فقط كما قد يتخيل القارئ الحديث.

والأبيض ارتبط بالنقاء والضياء وبعض الاستخدامات الطقسية. لكن لا يجوز تحويل هذه الدلالات إلى قاموس جامد يقول إن كل لون يعني شيئاً واحداً في كل رسم السياق مهم.

لماذا تبدو النقوش المصرية متشابهة؟ لأن الفنان لم يكن يعمل دائماً بوصفه فناناً فردياً يبحث عن أسلوب شخصي كما نفهم الفنان الحديث كانت هناك تقاليد وقواعد ونماذج وورش وهذا لا يعني غياب الإبداع بل على العكس. داخل القواعد نفسها ظهرت فروق هائلة بين العصور والمدارس والفنانين. وستظهر هذه الفروق بوضوح شديد عندما نصل إلى العمارنة، حيث تغيرت لغة الجسد والفضاء والعائلة الملكية بصورة لافتة. لكن قبل ذلك علينا أن نفهم الشيء الذي حافظ على هذه اللغة قرونًا العمارنة.

الكرنك (مدينة داخل مدينة)

في طيبة نشأ واحد من أعظم المجمعات الدينية في العالم القديم الكرنك. لكن الكرنك لم يبنه ملك واحد إنه حصيلة قرون ملك يضيف صرحاً. وآخر يبني قاعة أعمدة. وثالث يقيم مسلة. ورابع يضيف تمثالاً أو معبداً. ولهذا فإن الكرنك ليس مبنى واحداً له تصميم وضعه مهندس واحد.

إنه أشبه بسجل حجري طويل لتاريخ مصر.

ومن بين أشهر عناصره قاعة الأعمدة الكبرى، التي تضم عدداً هائلاً من الأعمدة الضخمة. والإنسان الذي يقف داخلها لا يرى مجرد هندسة. يرى محاولة لصنع فضاء يجعل الإنسان صغيراً أمام الإله والدولة.

المسلات (حجر يرتفع نحو السماء)

المسلة المصرية كانت عموداً حجرياً رباعي الأضلاع ينتهي بقمة هرمية. وكانت تقام عادة في أزواج أمام المعابد. ارتبطت بالشمس وبأفكار رع وابن بن، التل الأول في تقاليد الخلق الهليوبوليتانية.

لكن لا ينبغي أن نقول إن كل مسلة كانت تمثل الشمس بالطريقة نفسها دون النظر إلى سياقها.

المسلة أيضاً كانت نصباً ملكياً تحمل اسم الملك وألقابه وأعماله ولهذا كانت تجمع بين الدين والسلطة والذاكرة وما يلفت النظر أن بعض المسلات المصرية انتقلت لاحقاً إلى خارج مصر.

لكن نقلها كان في العصور اللاحقة، وليس جزءاً من النظام المصري الأصلي.

الأعمدة التي تحولت إلى نباتات

من أجمل ما في العمارة المصرية أن الأعمدة لم تكن دائماً أشكالاً هندسية مجردة. ظهرت تيجان تشبه البردي واللوتس والنخيل و غيرها من أشكال النباتات. وكان العمارة تستحضر النيل والأرض والنبات داخل الحجر.

وهذا ينسجم مع تصور مصري يرى التجدد والنبات والخصوبة في قلب دورة الحياة. لكن لا يعني ذلك أن كل عمود نباتي كان له معنى رمزي واحد ثابت. بعض الأشكال كانت رمزية فعلاً، وبعضها أصبح جزءاً من التقليد المعماري نفسه.

آخت آتون (مدينة بُنيت لفكرة واحدة)

عندما أسس أخناتون آخت آتون، لم يكن يبني عاصمة سياسية فقط. كان يحاول بناء عالم جديد حول آتون. اختير موقع جديد، وأقيمت المعابد والقصور والمساكن، ووُضعت حدود للمدينة بنقوش تحدد المجال المقدس والملكي. وهنا نرى شيئاً نادراً مدينة يمكننا أن نقرأ فيها مشروع ملك ديني وسياسي تقريباً كما لو أننا نراقبه وهو يتشكل لكن المدينة لم تعيش طويلاً. بعد وفاة أخناتون، تراجعت مكانتها وهُجرت تدريجياً.

حين صار للزمن حساب

كان المصري يعيش في عالم تحكمه دورة واضحة النيل يرتفع ثم ينحسر. الأرض تُزرع ثم تنمو المحاصيل ثم يأتي الحصاد ولهذا لم يكن الزمن فكرة مجردة. كان مرتبطاً مباشرة بالغذاء والضرائب والعمل والطقوس ومع تطور الدولة ظهر التقويم المصري قُسمت السنة إلى اثني عشر شهراً، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً، أي ثلاثمئة وستين يوماً.

ثم أضيفت خمسة أيام في نهاية السنة، عُرفت لاحقاً بالأيام الإضافية وهكذا أصبحت السنة ٣٦٥ يوماً. لكن السنة الشمسية الحقيقية أطول قليلاً من ذلك، ولهذا كان التقويم المصري ينزلق تدريجياً بالنسبة إلى الفصول عبر الزمن. وهذه نقطة مهمة؛ المصريون لم يمتلكوا تقويمًا شمسيًا مطابقًا تمامًا للسنة الفلكية كما نفهمها اليوم.

أخت وبرت وشمو

كانت السنة تقسم إلى ثلاثة مواسم رئيسية:

- أخت موسم الفيضان.

- برت موسم خروج الأرض وظهورها بعد انحسار المياه وزمن الزراعة.

- شمو موسم الحصاد والجفاف.

هذه التقسيمات كانت مرتبطة بإيقاع النيل والزراعة فالزمن في مصر لم يكن منفصلاً عن النهر حتى السنة نفسها كانت تبدو كأنها دورة حياة ماء ثم أرض ثم نبات ثم حصاد ثم عودة الماء.

النجوم التي لا تغيب

راقب المصريون السماء باهتمام شديد ومن أشهر ما عرفوه مجموعة من النجوم التي سماها المصريون النجوم التي لا تفتنى، وهي النجوم القريبة من القطب السماوي التي تبدو وكأنها لا تختفي عن السماء في الدورة اليومية. ارتبطت هذه النجوم في التصورات الجنائزية بالملك المتوفى واستمراره.

وهنا تلتقي السماء بالدين مرة أخرى المصري لا ينظر إلى النجوم بوصفها أجساماً بعيدة فقط إنها جزء من عالم يمكن أن يستمر فيه الملك بعد الموت.

الشعري اليمانية وعودة النيل

كان ظهور نجم الشعري اليمانية قبيل شروق الشمس في فترة معينة من السنة حدثاً مهماً في مصر القديمة وتزامن ظهوره السنوي تقريباً مع فترة قريبة من بداية ارتفاع النيل في العصور القديمة، ولهذا ارتبط النجم بالتقويم وبالتجدد لكن يجب الحذر من القول إن المصريين اكتشفوا أن الشعري تسبب

الفيضان لم تكن العلاقة سببية كانوا يلاحظون التزامن بين الظواهر وهذا بحد ذاته كان مهماً جداً.

كيف قاس المصريون القدماء الوقت؟

لم يعتمد المصريون القدماء على تقدير الوقت بالنظر إلى الشمس والنجوم وحده، بل طوّروا وسائل وأدوات ساعدتهم على تقسيم اليوم وتنظيم ساعات العمل والطقوس الدينية. ففي النهار، استفادوا من حركة الشمس وتغيّر الظلال؛ إذ يمكن تتبّع ظل المسلات أو استخدام أدوات ظلّية تحمل علامات تشير إلى فترات اليوم. ومع انتقال الشمس في السماء، يتغيّر طول الظل واتجاهه، فيستطيع المراقب الاستدلال على الوقت التقريبي.

أما في الليل، حين تغيب الشمس، فقد استخدموا وسائل أخرى، من بينها الساعة المائية. وهي وعاء مدرّج ينساب الماء منه ببطء عبر فتحة صغيرة، فيُستدل على الزمن الذي مرّ من خلال انخفاض مستوى الماء عند العلامات المرسومة داخله. وقد عُثِر على ساعة مائية مصرية شهيرة من عهد أمنحتب الثالث، عُثِر على أجزاء منها في الكرنك، وتُظهر كيف ارتبط قياس الوقت بالحياة الدينية في المعابد.

ولم تكن السماء بالنسبة إلى المصريين مجرد منظر، بل كانت مصدراً لمعرفة الزمن أيضاً. فقد تركوا جداول فلكية تسجّل مجموعات من النجوم وظهورها خلال دورات السنة، ومن أشهرها جداول النجوم القطرية التي ظهرت على توابيت من الدولة الوسطى نحو الألفية الثانية قبل الميلاد كانت هذه الجداول مرتبة في صفوف وأعمدة تضم أسماء مجموعات نجمية عرفت باسم العشریات أي مجموعات ترتبط بدورة تقارب عشر أيام. وقد ساعدت هذه المعارف على تنظيم ساعات الليل والتقويم والطقوس، وأظهرت أن مراقبة

السماء كانت جزءاً من المعرفة العملية والدينية في مصر القديمة. وهذا يعكس مجتمعاً يحتاج إلى تقسيم الزمن بدقة أكبر مما قد نتخيل.

الرياضيات (أرقام لخدمة الحياة)

لم تكن الرياضيات المصرية نظرية منفصلة عن الواقع كانت مرتبطة بما يحتاجه المجتمع كمية الحبوب مساحة الحقل حجم المخزن أجور العمال. توزيع الطعام حجم مواد البناء حساب الضرائب وتقسيم الأرض.

ومن أشهر ما بقي لنا بردية ريند الرياضية، وهي من عصر متأخر نسبياً، لكنها تحفظ مسائل وأساليب حساب تعكس تقاليد رياضية مصرية أقدم. وهناك أيضاً البردية الرياضية في موسكو، التي تتضمن مسائل هندسية، من بينها حساب أحجام بعض الأشكال.

الكسور

استخدم المصريون نظاماً مميزاً للكسور. كانوا يميلون إلى التعبير عن الكسور على هيئة مجموع كسور ذات بسط واحد فبدل أن تكون المسألة مكتوبة بالطريقة الحديثة نفسها، كان يمكن تفكيك الكسر إلى أجزاء أصغر ولذلك تظهر في البرديات جداول تساعد الكاتب على إجراء هذه التحويلات بسرعة لم يكن هذا النظام بسيطاً بالضرورة بل تطلب معرفة عملية متقدمة بطرق التفكيك والحساب.

كيف قاسوا الأرض؟

بعد فيضان النيل، كانت حدود الحقول قد تتغير أو تختفي وهنا احتاجت الدولة والمزارعون إلى إعادة تحديد الملكيات ظهر دور المساحين والكتبة.

وكانت القبور أرشيفاً للحضارة
كواليس وخفايا وأسرار
أمانى سليمان
القياس لم يكن علماً تجريدياً كان مرتبطاً بالملكية والضرائب والزراعة ولهذا
أصبحت الهندسة جزءاً من إدارة الدولة.

وهل بنى المصريون الأهرام بالحساب؟

بالتأكيد احتاج البناء الضخم إلى قياسات وحسابات وتنظيم هندسي.

لكن يجب الحذر من الأساطير الحديثة التي تنسب إلى المصريين أسراراً
رياضية خارقة أو معارف فلكية لا يوجد دليل عليها.

الإنجاز الحقيقي أكثر إثارة لقد تمكنوا من الوصول إلى حلول عملية معقدة
باستخدام المعرفة الرياضية المتاحة لهم، والخبرة المتراكمة، والقياس،
والتجربة، والتنظيم. لا نحتاج إلى اختراع معرفة سرية حتى نفهم عظمة ما
فعلوه.

وحدة القياس

استخدم المصريون وحدات قياس مختلفة، ومن أهمها الذراع الملكية وكانت
هناك تقسيمات أصغر للقياس وتوجد أدلة أثرية على استخدام أدوات معيارية
للقياس، وهو أمر ضروري لدولة تنفذ مشاريع ضخمة وتجمع الضرائب
وتوزع الموارد. فإذا كان طول الحجر مهماً، فإن وحدة القياس تصبح جزءاً
من السلطة.

الهندسة التي خرجت من النيل

يمكن أن نفهم العلاقة بين النيل والهندسة ببساطة

إذا كانت الأرض تتغير، يجب قياسها.

إذا كانت الدولة تريد بناء معبد، يجب تخطيطه.

إذا أرادت نقل حجر، يجب معرفة حجمه ووزنه.

إذا أرادت توزيع الطعام، يجب حساب الكميات.

وهكذا نشأت المعرفة من الحاجة وهذه إحدى السمات المهمة للحضارة المصرية المعرفة لم تكن منفصلة عن الحياة.

وحين تعلم المصري أن يكتب

وصلنا الآن إلى أحد أعظم إنجازاته الكتابة لكن الهيروغليفية لم تكن اللغة نفسها هذه نقطة يجب تثبيتها جيداً اللغة المصرية القديمة مرت بمراحل طويلة، بينما تغيرت أنظمة كتابتها بحسب الزمن والاستخدام كانت هناك:

- الهيروغليفية، خاصة في النقوش والآثار والطقوس والنصوص الرسمية.

- الهيروغليفية، وهي كتابة أكثر اختصاراً، استخدمت على البردي وفي الإدارة والوثائق والنصوص الدينية.

- الديموطيقية في العصور المتأخرة، وهي أكثر اختصاراً وتطوراً.

- القبطية، التي كتبت اللغة المصرية بحروف مشتقة أساساً من اليونانية مع إضافة علامات لبعض الأصوات المصرية.

وهكذا لم تختفِ اللغة المصرية فجأة تغير شكلها المكتوب عبر آلاف السنين.

الهيروغليفية ليست صوراً فقط

قد ينظر الإنسان إلى جدار مليء بالطيور والعيون والأقدام والأشخاص ويظن أن كل علامة تمثل الشيء المرسوم لكن النظام أكثر تعقيداً بعض العلامات

تمثل أصواتاً بعضها قد يمثل أكثر من صوت وبعضها يساعد على تحديد معنى الكلمة ولهذا يستطيع طائر مرسوم أن يكون علامة صوتية في كلمة، لا صورة لطائر فقط وهذا ما جعل فك الهيروغليفية ممكناً عندما فهم العلماء العلاقة بين العلامات والأصوات.

وهناك نصوص أدبية تمدح مهنة الكاتب، أحياناً بصورة مبالغ فيها، وتصورها أفضل من المهن الشاقة لكن هذه النصوص نفسها جزء من الأدب التعليمي، وليست استطلاعاً محايداً لآراء كل المصريين.

البردية (ورق مصر)

كانت البردي من أهم مواد الكتابة صُنعت من نبات البردي الذي ينمو في البيئات الرطبة، خصوصاً في منطقة الدلتا تُقطع السيقان وتجهز وتوضع طبقات فوق بعضها ثم تضغط وتجفف وهكذا تتحول النبتة إلى سطح صالح للكتابة وكانت البرديات تستخدم في الرسائل والحسابات والعقود والنصوص الأدبية والوصفات الطبية والنصوص الدينية والوثائق الإدارية والشكاوى. وهنا تصبح البردية نافذة مذهلة على حياة الإنسان العادي.

حين خرج الإنسان من ظل الملك

من السهل أن نعرف أسماء الملوك لأن أسماءهم حُفرت في الحجر لكن الأدب أعطانا شيئاً مختلفاً أصواتاً لا نعرف أصحابها أحياناً، لكنها بقيت حية. وهذا يجعل الأدب المصري من أهم المصادر لفهم طريقة تفكير المجتمع، مع ضرورة تذكر أن النص الأدبي ليس تقريراً صحفياً عن الواقع؛ إنه عمل أدبي له أسلوبه وغايته.

بتاح حتب (حكمة الحياة)

تنسب إلى بتاح حتب تعاليم من أشهر نصوص الحكمة المصرية.

تتناول ضبط النفس، والاستماع، والتعامل مع الناس، وعدم الغرور، والحذر في الكلام. وفيها صورة لمجتمع هرمي واضح، لكنه يحتاج في الوقت نفسه إلى السلوك المنضبط حتى يعمل. وهذه النصوص مهمة لأنها تذكرنا بأن المصريين لم يكونوا يفكرون في الآلهة والموت فقط كانوا يفكرون أيضاً

كيف أتصرف؟ كيف أتحدث؟ كيف أتعامل مع من هو أعلى مني؟

وكيف أحافظ على سمعتي؟

عندما شك المصري في معنى الحياة

ومن أكثر النصوص إثارة نصوص التشاؤم والتأمل في الموت. هناك أعمال أدبية تتحدث عن الإنسان الذي يرى الفساد من حوله ويسأل عن معنى الحياة والعدالة والموت لكن لا ينبغي أن نقول إن المصريين كانوا شعباً متشائماً.

هذه نصوص أدبية تعكس لحظات فكرية وأسئلة معينة، مثلما لا نستطيع أن نحكم على شعب كامل من رواية حزينة واحدة بل إن وجود هذه النصوص يكشف شيئاً أجمل المصري لم يكن يخاف الموت فقط؛ كان يفكر فيه.

أناشيد الآلهة

كتب المصريون أناشيد لآمون ورع وآتون وحتحور وغيرهم والانشيد الديني لم يكن مجرد أغنية كان يصف صفات الإله، وقوته، وعلاقته بالخلق، ودوره في حفظ النظام وفي بعض أناشيد رع، تظهر الشمس بوصفها قوة تجعل

وكانت القبور أرشيفاً للحضارة
كواليس وخفايا وأسرار
أماني سليمان
العالم يستمر وفي أناشيد آمون، تظهر صورة الإله الخفي الذي لا يمكن للعين
أن تحيط به بسهولة.

أما أناشيد آتون في عصر أخناتون فتتميز بتركيزها على الشمس والضوء
والحياة التي تمنحها أشعتها وهنا يمكننا رؤية اختلاف العقائد من خلال الأدب
نفسه.

أناشيد آتون (عالم لا يعيش إلا بالشمس)

في عصر أخناتون، تصبح الشمس أكثر من مجرد جرم سماوي آتون يمنح
الحياة حين تشرق الشمس تستيقظ الأرض الناس يعملون الحيوانات تتحرك.
والنبات ينمو وحين تغيب، يبدو العالم وكأنه يدخل حالة من السكون.
لكن هذا الأدب الديني ارتبط بصورة وثيقة بالملك وعائلته، ولذلك لا ينبغي أن
نقرأه باعتباره وصفاً لعقيدة كل المصريين في تلك الفترة.

ماذا لو حدثت جريمة؟

الجرائم كانت متنوعة سرقة اعتداء تخريب فساد انتهاك للمقابر جرائم ضد
الملك أو المعابد والعقوبات تختلف بحسب الجريمة والعصر والظروف يمكن
أن تشمل الغرامات، أو العقوبات الجسدية، أو العمل القسري، أو النفي، أو
عقوبات أشد في بعض الحالات.

لكن لا يجوز أن ننقل عقوبة وردت في نص من عصر معين ونقول إنها كانت
قاعدة ثابتة طوال ثلاثة آلاف عام القانون المصري تغير مثل كل شيء آخر.
من أخطر الجرائم في مصر القديمة سرقة المقابر وليس من الصعب فهم
السبب القبر يحتوي على ذهب حلي أثاث أوانٍ تماثيل أقمشة وأحياناً أشياء

ثمينة جدًا لكن السرقة لم تكن جريمة مادية فقط كانت اعتداءً على جسد الميت وطقوسه، وعلى النظام الديني نفسه وفي نهاية الدولة الحديثة لدينا وثائق ومحاكمات تكشف أن سرقة المقابر أصبحت مشكلة حقيقية وهنا نصل إلى مجتمع دير المدينة.

أقدم شبكة تزيف وتجارة آثار في التاريخ

في نهاية الدولة الحديثة، عندما شاع الفساد، لم يكتفِ اللصوص بسرقة الذهب؛ بل ظهرت أول شبكة لتزيف المخطوطات والتماثيل!

كشفت برديات المحاكمات في طيبة أن بعض الكتبة الفاسدين في المعابد كانوا يأخذون برديات قديمة بيضاء، وينقشون عليها تعاويذ سحرية وكتابات مزيفة من كتاب الموتى، ثم يبيعونها لعامة الشعب الأثرياء بأسعار طائلة على أساس أنها برديات أثرية سحرية مباركة ومستوردة من العصور الأولى هذا يعني أن بيزنس النصب وتزيف الآثار والأوراق الرسمية واجهه الأجداد في الشارع الفرعوني بنفس الطرق الذكية والذنيئة التي نشهدها في عالمنا المعاصر، مما يرفع غبار المثاليات عن التاريخ ويجعله ينبض بالواقعية.

سرقة المقابر بأيدي الدولة (أكبر قضايا الاختلاس الحكومي)

في أواخر الدولة الحديثة (عصر الرعامسة)، لم تكن سرقة المقابر الملكية تتم على أيدي لصوص الشوارع الفقراء فقط، بل كشفت برديات أبوت وأمهرست (برديات السرقات الحقيقية) عن شبكة فساد حكومي مرعبة.

التحقيقات الرسمية كشفت أن عمدة غرب طيبة وموظفين كباراً في الدولة والكهنة أنفسهم كانوا يتواطؤون مع لصوص محترفين لفتح مقابر الملوك القدامى وسرقة التوابيت الذهبية والمجوهرات!

الأخطر من ذلك، أنه في فترات الانهيار الاقتصادي، كانت الدولة نفسها وبأمر من الفرعون تقوم بما يُسمى إعادة تدوير الذهب؛ حيث كان يرسل جنوده لفتح مقابر ملوك الفراعنة القدامى، ويقشرون الذهب عن المومياوات والتوابيت، لإعادة صهره وسكّه لدفع أجور الجيش وشراء الأسلحة لحماية حدود مصر! وكانوا يبررون ذلك دينياً بأنهم ينقلون المومياوات لمخابئ سرية لحمايتها (خبيئة الدير البحري الشهيرة).

جنايات الأخطاء الطبية وقانون العقاب الصارم للأطباء

ماذا يحدث لو أخطأ الطبيب الفرعوني أثناء الجراحة ومات المريض الملكي أو العسكري؟

الحقيقة القانونية الصادمة أن بموجب القوانين الطبية الصارمة في بيت الحياة (المعابد)، كان يُسمح للأطباء باتباع الطرق العلاجية المدونة في البرديات المقدسة فقط. فإذا التزم الطبيب بالنص ومات المريض، يتم تبرئته. أما إذا حاول الطبيب الابتكار أو تجربة تكتيك جراحي جديد من رأسه وفشلت العملية ومات المريض، كانت العقوبة الجنائية الفورية هي الإعدام فوراً للطبيب، لأن القانون اعتبر تجربة أساليب غير مجربة على البشر بمثابة جناية قتل عمد مع سبق الإصرار؛ مما يفسر لماذا ظل الطب الفرعوني دقيقاً ومحافظاً وصارماً طوال القرون.

دير المدينة (قرية صغيرة حفظت لنا حياة كبيرة)

على الضفة الغربية من طيبة، قرب وادي الملوك، عاش مجتمع مميز من العمال والحرفيين الذين كانوا يعملون في المقابر الملكية نعرف الموقع باسم دير المدينة لم يكونوا عمالاً مجهولين يُرمى بهم في الصحراء كان بينهم

نحاتون رسامون كتبة حرفيون عمال متخصصون وزوجات وأطفال وأسر.
وكان هذا المجتمع منظمًا بصورة لافتة وهنا حدث شيء نادر في تاريخ العالم القديم لقد ترك هؤلاء الناس وراءهم عددًا كبيرًا من الوثائق التي تتحدث عن حياتهم الخاصة رسائل عن أشياء تبدو صغيرة جدًا بالنسبة إلى تاريخ الملوك.

طلب طعام مشكلة عائلية دين غياب عن العمل مشكلة بين جارين مراسلات بين أفراد الأسرة وهذه الأشياء الصغيرة هي بالضبط التي تجعل الموقع ثمينًا. لأنها تقول لنا هؤلاء لم يكونوا مجرد أسماء على جدار.

وتكشف الوثائق أن النساء في هذا المجتمع كنّ فاعلات اقتصاديًا وقانونيًا. امتلكن ممتلكات أبرمن معاملات ورثن وتعاملن مع الوثائق وكان لهن حضور في النزاعات وهذا ينسجم مع ما رأيناه في مجتمعات مصرية أخرى المرأة المصرية لم تكن محصورة قانونيًا في صورة الزوجة التابعة للرجل كما قد توحى بعض التصورات الحديثة عن العالم القديم لكن هذا لا يعني أن المجتمع كان مساويًا بين الجنسين بالمفهوم الحديث كان مجتمعًا هرميًا، وكانت الأدوار الاجتماعية مختلفة.

الزواج والطلاق

الزواج في مصر القديمة لم يكن، في صورته المعتادة، قائمًا على طقس ديني واحد يشبه عقود الزواج الحديثة كان علاقة اجتماعية وقانونية وقد وجدت اتفاقات تحدد حقوقًا مالية والطلاق كان ممكنًا. وقد تدخل الممتلكات والحقوق الاقتصادية في عملية الانفصال. وهذا يعطينا صورة مختلفة عن الأسرة المصرية كانت الأسرة مهمة جدًا، لكنها لم تكن مؤسسة جامدة لا يمكن الخروج منها.

اللعب والطفولة

لم تكن حياة الأطفال كلها عملاً عرف المصريون الألعاب والدمى والكرات وألعاب الطاولة ومن أشهر ألعابهم السينيت.

كانت لعبة لوحية ذات أهمية اجتماعية، لكنها اكتسبت أيضاً ارتباطات رمزية وجنائزية في بعض الفترات ومع الوقت أصبحت صورة الانتقال عبر مربعات اللعبة قابلة للربط برحلة الإنسان في العالم الآخر.

لكن لا ينبغي أن نقول إن كل لعبة سينيت كانت طقساً دينياً.

كانت لعبة أولاً، ثم حملت معاني رمزية في سياقات معينة.

بردية إدوين سميث

من أهم النصوص الطبية المصرية بردية إدوين سميث وهي تركز بصورة لافتة على الإصابات والجروح، وتعرض حالات تبدأ بالفحص ثم التشخيص ثم العلاج والتوقعات والنسخة التي وصلت إلينا تعود إلى عصر متأخر نسبياً، لكنها تنقل تقاليد أقدم ولهذا فهي دليل مهم على وجود معرفة طبية عملية، وليست مجرد مجموعة تعاويذ.

الواقع البيولوجي والصحي للملوك (خلف بريق التماثيل)

الجينات تكشف الدماء الملوثة وزواج الأقارب

التحليل الجيني الحديث لمومياوات الأسرة الثامنة عشرة (أسرة توت عنخ آمون) صدم العلماء بواقع صحي مرير؛ فبسبب عقيدتهم الصارمة بضرورة الحفاظ على الدم الملكي النقي عبر زواج الإخوة، توارثت الأجيال أمراضاً

جينية قاتلة. توت عنخ آمون لم يمت محارباً خارقاً، بل كان جسده منهكاً بتصلب العظام (مرض كولر) وقدم قعساء عرجاء تمنعه من الوقوف دون عكاز، إلى جانب شق في الحلق (الحنك المشقوق) وضعف شديد في المناعة؛ فالبريق الذهبي الخارجي كان يخفي وراءه سلالة متهاكمة جينياً.

تشريح الأمراض الحديثة في أجساد الأجداد

الفحص المجهرى والأشعة المقطعية للمومياوات أثبتا أن الفراعنة عانوا بغزارة من أمراض نعتبرها اليوم حديثة وناجمة عن الرفاهية أو التلوث؛ فقد وُجدت آثار تصلب الشرايين الحاد في جدران أوعية الملوك نتيجة إفراطهم في تناول اللحوم المدهونة والبط المطهو بالدسم، إلى جانب تآكل مرعب في أسنان الملكات والملوك (مثل حتشبسوت) بسبب اختلاط حبات الرمل الناعمة بالخبز اليومي أثناء طحن الغلال، مما كان يسبب خراجات مميتة في الفك تؤدي لتسمم الدم والوفاة.

تشريح مومياء مرنبتاح (لغز فرعون الخروج وعقدة الملح الجسدية)

من أكثر المومياوات إثارة للجدل الطبي والعلمي في العالم هي مومياء الملك مرنبتاح (ابن رمسيس الثاني وخليفته على العرش)، والذي يربطه الكثير من المؤرخين بقصة فرعون الخروج والغرق في البحر.

الصدمة الطبية حين قام العالم الفرنسي موريس بوكاي وفريق من الأطباء بتشريح وفحص مومياء مرنبتاح بأشعة إكس، وجدوا تقريراً طبياً حياً ومذهلاً الجسد كان يحتوي على كسور عنيفة ومتعددة في العظام وضرر شديد في الأنسجة حدثت كلها قبل الموت مباشرة أو في لحظة الوفاة نتيجة صدمة

موجية أو ضربة موجية عنيفة جداً (وهو ما يتطابق علمياً مع فكرة الارتطام بجدار مائي ضخم أو الغرق تحت ضغط الأمواج).

(معجزة الحفظ السريع) الأغرب من ذلك، أن الفحص الكيميائي أثبت أن جسد هذا الملك بالذات تم غمره في ملح النطرون وتجفيفه بسرعة قياسية غير معتادة في الطقوس الملكية، وكأن المحنطين كانوا في عجلة عارمة لإنقاذ الجثة من التحلل السريع بعد انتشارها من الماء، مما يجعل مومياء هذا الملك صفحة حية من الدراما الطبية والتاريخية التي تحبس الأنفاس.

شفرة المومياوات الصارخة (اللعنة الجينية لأبناء الملوك)

من أكثر المومياوات رعباً في المتحف المصري هي مومياء الرجل الصارخ ومومياء المرأة الصارخة؛ حيث دُفنا وأفواههما مفتوحة كمن يموت من شدة الألم والخوف. المفاجأة العلمية والقضائية هي أن الفحص الحديث والتحليل الجيني فجراً مفاجأة؛ مومياء الرجل الصارخ تبين أنها تعود للأمير بنتاؤر (ابن رمسيس الثالث)، وهو الأمير الذي قاد مؤامرة الحريم التي ذكرناها سابقاً لذبح أبيه!

(عقوبة الأبدية) بعد فشل المؤامرة والقبض عليه، لم يُدفن كباقي الملوك؛ بل عوقب سحرياً بدفنه بملابس خشنة من صوف الأغنام (الذي كان يعتبر نجساً عند الفراعنة)، وتم لفه بالكتان وهو حي أو في لحظة جرعه السم دون تفريغ أحشائه، وتعمد المحنطون ترك فمه مفتوحاً وعدم تدوين اسمه على التابوت، وهي أقصى عقوبة فرعونية تضمن تعذيب روحه وحرمانها من العبور للأبدية.

الرعاية الطبية والتعويضات للجنود والعمال

يتخيل الناس أن العسكري أو العامل الفرعوني كان مجرد آلة تُستهلك حتى الموت. النقص هنا هو إغفال أول نظام رعاية صحية واجتماعية موثق في التاريخ.

(الحقيقة المفقودة) تكشف بردية دير المدينة القضائية أن العامل أو الجندي الذي يُصاب أثناء العمل أو المعركة (كسر في الساق، إصابة في العين، أو عدوى) كان يحصل على إجازة مرضية مدفوعة الأجر بالكامل (تُصرف له حصته من الحبوب والبيرة وهو في بيته). وكان لديهم نظام تعويضات؛ فإذا أُصيب الجندي بإعاقة مستديمة تمنعه من القتال، كان يُمنح قطعة أرض زراعية يعيش من خيرها مع عائلته طوال حياته إغفاءً من الضرائب وتكفيراً عن دمه؛ مما يثبت أن قوة الإمبراطورية العسكرية كانت قائمة على الوفاء والعدالة لمن يضحون بأجسادهم لأجل التاج، وليس على السخرة الجافة فقط.

قوانين التأمين الطبي للحيوانات العاملة

عرفنا أن هناك رعاية طبية للجنود، ولكن الصدمة الإنسانية والقانونية في الشارع الفرعوني كانت تمتد للحيوانات التي تساعد في الحروب وبناء الأهرامات. تكشف برديات القضاء والحياة اليومية أن الحمار أو الثور الذي يصاب بكسر أو جرح أثناء نقل الأحجار، كان يحصل على إجازة رسمية ويُمنع صاحبه من تشغيله بقوة القانون. وكانت الدولة توفر أطباء بيطريين في معسكرات البناء والجيش لفحص حوافر الخيول والحمير يومياً وتطهير جروحها؛ ومن يثبت ضربه لحيوانه بعنف أو إجهاده وهو مريض، كان

يتعرض لعقوبة الجلد أو الغرامة المالية بحرمانه من حصته من البيرة، لأن الحيوان في عقيدة كمت (مصر) كائن يملك روحاً مقدسة تشتكي لبارئها.

(ضريبة الدموع) كيف كان الفراعنة يفتشون بيوت الفلاحين؟

في عصر الحروب وبناء الإمبراطورية، كانت الدولة بحاجة لأموال طائلة لتمويل الجيش وصناعة العجلات الحربية. ولأن العملات النقدية لم تكن موجودة، ابتكر الفراعنة أول نظام تفتيش وضبط ضريبي صارم وصادم في التاريخ.

كواليس التفتيش تكشف بردية الأقصر الاقتصادي أن موظفي الضرائب (الكتبة) كانوا يطوفون القرى برفقة جنود مدججين بالهراوات. لم يكونوا يأخذون حصة من المحصول فقط، بل كانوا يدخلون بيوت الفلاحين ويسيرون كمية الزيت، والكتان، والبيرة، وحتى الماشية والدجاج في البيت بالمسطرة والوزن. العقوبة المذلة إذا تبين أن الفلاح خبأ جزءاً من قمح بيته لإطعام أطفاله دون أن يبلغ عنه، كانت العقوبة فورية وصادمة يُسحل الفلاح في وسط القرية ويُجلد أمام عائلته، ثم يُجبر على دفع ضعف الحصة المفقودة كغرامة عسكرية، وإذا لم يجد ما يدفعه، يُصادر أطفاله أو إخوته لئيساقوا كعبيد سخرة في مناجم النحاس والذهب؛ مما يثبت أن خلف جدران المعابد الشاهقة كانت هناك آلة اقتصادية وجبائية خشنه يدفع ثمنها البسطاء دموعاً ودماءً.

واقع المجاعة الجيولوجية وسرقة مخازن السلاح

تاريخ الفراعنة ليس كله انتصارات وبناء؛ بل واجهت الدولة الحديثة فترات جفاف قاسية جداً بسبب انخفاض منسوب فيضان النيل، وهو ما سجلته أوراق

البردي كآزمات مجتمعية طاحنة كادت تنهي الإمبراطورية. في عهد رمسيس التاسع، وصلت المجاعة إلى حد أن العصابات الجائعة من عامة الشعب والجنود الفارين من الخدمة العسكرية قاموا باقتحام مخازن السلاح الملكية التابعة للجيش وسرقة الدروع البرونزية والسهام، ليس لمحاربة الفرعون، بل لصهير المعادن وصناعة أدوات زراعية أو بيعها للمهرجين الأجانب على الحدود مقابل الحصول على القمح والشعير لإطعام أسرهم!

أهرام النوبة

ومن أجمل المفارقات أن الأهرام لم تختفِ بعد نهاية عصر الأهرام المصري. في كوش استمر بناء الأهرام، لكن بأشكال أكثر نحولاً وزوايا مختلفة، وأصبحت المقابر الملكية جزءاً واضحاً من المشهد الكوشي.

لذلك عندما نرى أهراماً في السودان اليوم، لا ينبغي أن نفترض أنها مجرد أهرام مصرية انتقلت إلى الجنوب. هي أهرام كوشية، نشأت في تقليد متأثر بمصر لكنه أصبح جزءاً من حضارة مختلفة. فالتأثر لا يعني التطابق.

الحمل والولادة والطفولة

حين كانت الحياة تبدأ وسط الخوف والأمل

كان الحمل والولادة من أكثر مراحل الحياة حساسية في مصر القديمة، ولذلك ظهرت حولهما وصفات طبية وممارسات وقائية ومعتقدات دينية.

لدينا، مثلاً، بردية كاهون الطبية من الدولة الوسطى، وهي من أهم النصوص المصرية التي تتناول صحة المرأة، والحمل، والولادة، ومشكلات الرحم. وتضم تشخيصات ووصفات طبية إلى جانب ممارسات تحمل طابعاً سحرياً أو

طقسياً. وكان المصريون يستخدمون وسائل متعددة لمعرفة ما إذا كانت المرأة ستحمل، وللتعامل مع آلام الحمل والولادة ومشكلاتهما. وبعض هذه الوسائل يبدو لنا اليوم غريباً جداً، لكنه يكشف محاولة مبكرة لفهم الجسد من خلال الملاحظة والتجربة والمعتقد في الوقت نفسه كاختبار الشعير والقمح ظهرت في النصوص المصرية إشارات إلى آلام الولادة، ومحاولات تسهيلها، وممارسات مرتبطة بالحماية.

كما تظهر في مصر صور ومشاهد للولادة في وضع القرفصاء أو على ما يرتبط بما يسمى طوبة الولادة، وهي كتلة أو مقعد تستخدمه المرأة أثناء الولادة في بعض التقاليد المصرية.

وتكشف النصوص أن المصريين كانوا يميزون بين حالات مختلفة من الحمل والولادة ومشكلات المرأة، حتى لو كانت تفسيراتهم التشريحية والمرضية مختلفة جذرياً عن الطب الحديث.

وكانت حماية الأم والطفل مرتبطة أيضاً بآلهة مثل حتحور وتاورت، الإلهة ذات هيئة أنثى فرس النهر الحامل، التي ارتبطت بالحمل والولادة وحماية الأم والطفل. وهنا يظهر مرة أخرى التداخل المصري بين الطب والطقس يمكن أن تستخدم المرأة وصفة أو علاجاً، وفي الوقت نفسه تستعين بالحماية الإلهية والتمائم والتعاويذ.

مصر التي أعاد العالم اكتشافها

حين بدأت الهيروغليفية تُقرأ في القرن التاسع عشر، لم تكن مصر القديمة قد عادت كاملة. لقد عاد صوتها، لكن أجزاء كبيرة من قصتها كانت لا تزال مدفونة. كانت أسماء الملوك تُقرأ، لكن ترتيب بعض العصور ظل موضع

بحث. وكانت المعابد معروفة، لكن وظائف كثير من الحجرات والطقوس لم تكن مفهومة تمامًا. وكانت المقابر تُفتح، لكن حياة أصحابها بقيت ناقصة.

ومع كل اكتشاف جديد، كانت الصورة تتغير. لم يعد المصري القديم مجرد صانع أهرام. بدأ يظهر كفلاح وكاتب وطبيب وحرفي وجندي وتاجر وكاهن وملكة وأم وطفل. وبدأت مصر القديمة تتحول من صورة ضخمة واحدة إلى مجتمع حقيقي، فيه طبقات وفئات ومصالح وأحلام ومخاوف.

الآثار لا تتكلم وحدها

وهنا تظهر مشكلة أساسية في دراسة التاريخ المصري. الآثار التي بقيت لنا ليست عينة عشوائية من المجتمع ما بُني بالحجر بقي أكثر.

ما كُتب على الحجر نجا أكثر. قبور الملوك والنخب أغنى من قبور الفقراء. المعابد حفظت أسماء أصحاب السلطة أكثر مما حفظت أسماء الناس العاديين.

ولهذا يمكن أن يبدو لنا المجتمع المصري أكثر فخامة مما كان عليه في الحياة اليومية. لكن عندما نضيف البرديات، ومساكن العمال، والأدوات، وبقايا الطعام، والهياكل العظمية، ومقابر القرى، تتغير الصورة.

نكتشف أن وراء المعبد اقتصادًا كاملاً.

وراء الهرم مدينة من العمال والموظفين والحرفيين.

وراء المقبرة عائلة ووراء التمثال إنسانًا عاش ومات.

وهذا هو السبب في أن علم الآثار الحديث لا يكتفي بالبحث عن كنز.

إنه يبحث عن الحياة.

المراجع والمصادر

أولاً: المؤامرات الملكية والصراعات داخل القصر

١. Redford, Susan. The Harem Conspiracy: The Murder of Ramesses III. DeKalb, Illinois: Northern Illinois University Press, 2008.

٢. de Buck, Adriaan. "The Judicial Papyrus of Turin." The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 23, No. 2, 1937, pp. 152–164.

٣. Hawass, Zahi, et al. "Revisiting the Harem Conspiracy and Death of Ramesses III: Anthropological, Forensic, Radiological, and Genetic Study." BMJ, Vol. 345, 2012, e8268. <https://doi.org/10.1136/bmj.e8268>

ثانياً: الحروب والاستراتيجيات العسكرية والمصادر المصرية القديمة

٤. Breasted, James Henry. Ancient Records of Egypt: Historical Documents from the Earliest Times to the Persian Conquest. Vol. II: The Eighteenth Dynasty. Chicago: The University of Chicago Press, 1906.

ثالثاً: الطب والبرديات الطبية والمرأة والحمل

Breasted, James Henry. The Edwin Smith Surgical .^٥

**Papyrus: Hieroglyphic Transliteration, Translation and
Commentary. 2 vols. Chicago: The University of Chicago
.Press, 1930**

**Griffith, Francis Llewellyn. The Petrie Papyri: Hieratic .^٦
Papyri from Kahun and Gurob (Principally of the Middle
.Kingdom). London: Bernard Quaritch, 1898**

رابعاً: المومياوات والوراثة وصحة الملوك

Hawass, Zahi, Yehia Z. Gad, Somaia Ismail, et al. .^٧

**“Ancestry and Pathology in King Tutankhamun’s Family.”
JAMA, Vol. 303, No. 7, 2010, pp. 638–647.
.https://doi.org/10.1001/jama.2010.121**

خامساً: مستحضرات التجميل والعطور والمواد المستخدمة في الحياة اليومية

**Lucas, Alfred. Ancient Egyptian Materials and Industries. .^٨
4th ed., revised and enlarged by J. R. Harris. London:
.Edward Arnold, 1962**

سادساً: الحياة اليومية والمجتمع المصري القديم

**David, A. Rosalie. Handbook to Life in Ancient Egypt. .^٩
.New York: Facts On File, 1998**

الكاتبة أمانى سليمان

سوريا محافظة الحسكة

مدينة القامشلي

مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع و الثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهو حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضائع

السادس و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الأربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين (١) الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد (٢) الحضارة الأكديّة

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد (٣) الحضارة البابليّة

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد (٤) الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض (١) حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٢) اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٣) الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٤) الحوريون، العمونيون،

المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الواحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٥) الفلسطينيين والحثيون

الثاني والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٦) العبرانيون والأسرائيليون

الثالث و الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٧) من حلب إلى حوض

العاصي والممالك المحيطة

الرابع والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٨) من المدن الساحلية إلى
ممالك الداخل

الخامس والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٩) الأديان و التحولات
الدينية في بلاد الشام

السادس والستون مونولوجات مسرحية بعنوان أصوات من الرماد

السابع والستون مونولوجات مسرحية بعنوان الوجه الآخر

الثامن والستون مونولوجات مسرحية بعنوان وجوه في الغياب

التاسع والستون كتاب بعنوان وكانت القبور أرشيفاً للحضارة (١) ملح وبصل وتيجان

السبعون كتاب بعنوان وكانت القبور أرشيفاً للحضارة (٢) كواليس وخفايا وأسرار